

الباب الخامس

بدء الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥

obeikandi.com

الفصل الأول

الأسباب المباشرة ومعركة الكفر

أ- الأسباب المباشرة

توطئة

بعد اجتياح الحلفاء لبلاد الشام أدرك جميع الأحرار الحاجة الماسة لهيئة تنظم الكفاح من أجل الحرية والاستقلال، فدعى حزب الاتحاد السوري برئاسة عميده الجليل ميشيل لطف الله جميع العناصر السياسية والأحزاب والجماعات لعقد مؤتمر في جنيف منذ مطلع سنة ١٩٢١م وقد عقد هذا المؤتمر في أيلول سنة ١٩٢٢م وأصدر بياناً مسهباً عن القضية السورية وزعه على أعضاء جمعية الأمم مفاده طلب استقلال البلاد وسيادتها القومية وممارستها جميع الحقوق السياسية وكان ختامه المواد الخمسة التالية^(١):

- ١- الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين.
- ٢- الحق لهذه البلاد بأن تتحد معاً بحكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب.
- ٣- إعلان إلغاء الانتداب حالاً.
- ٤- جلاء الجنود الفرنسيين والإنكليز عن سوريا ولبنان وفلسطين.
- ٥- إلغاء تصريح بلفور المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين.

وفد تشكلت لجنة تنفيذية من أعضاء المؤتمر لمتابعة وملاحقة القضية العربية السورية لدى جامعة الأمم المتحدة والمحافل الدولية. وقد ذهب وفد من اللجنة إلى مؤتمر لوزان لجمعية الأمم المتحدة من أعضائه الأمير شكيب أرسلان وسعد الله الجابري وسليمان كنعان وطلب السماح ببسط القضية رسمياً أمام المؤتمر في ٢٣

^(١) محي الدين السفرجلاني: تاريخ الثورة السورية ص ١١٥.

نوفمبر سنة ١٩٢٣م وبما أنه لم يسمح له بالدخول إلى قاعات المؤتمر اغتنم الاجتماع السنوي المعتاد لجمعية الأمم في أيلول سنة ١٩٢٣م وقدم فيه الوفد بياناً في القضية السورية العربية كما فعل مثل ذلك سنة ١٩٢٤م وكان يلاحق القضية في كل المحافل الدولية.

وفي نهاية عام ١٩٢٤م وصل إلى بيروت الجنرال ساراي مفوضاً سامياً بدلاً من الجنرال ويغان، وكان يقال إنه رجل علماني ضد الأكليروس وقد ألغى الأحكام العرفية في لبنان التي فرضت عليه منذ سنة ١٩٢٠م وأصدر عفوه عن خمسين محكوماً من لدن المحاكم العسكرية الفرنسية، وأصدر بلاغاً قال فيه إنه مستعد لسماع الشكاوى من أي كان وإجابة المطالبين. لذلك تألف وفد من الوطنيين بدمشق وسار إلى بيروت فقابل المفوض السامي في ١٧ كانون الثاني سنة ١٩٢٥.

وقدم له مظبطة تحمل تواقيع عديدة وتطالب بما يلي^(١):

- ١- أن تكون البلاد السورية بحدودها الطبيعية التي كانت عليها قبل الحرب العالمية بما فيها بلاد العلويين وجبل الدروز ولواء الإسكندرون والأراضي الملحق ببلدان الصغير وطناً واحداً في اللغة القومية.
- ٢- انتخاب جمعية تأسيسية تضع للبلاد قانونها الأساسي - وحل المجالس التمثيلية الحالية.
- ٣- تأييد قاعدة مسؤولية الحكومة أمام البرلمان وإلغاء الإدارة العسكرية ومنع تدخل المستشارين العسكريين.
- ٤- احترام الحرية الشخصية بجميع أنواعها لأنها من الحقوق الطبيعية المقدسة.
- ٥- وضع حد لأعمال الاعتقال والإبعاد بدون محاكم وإصدار عفو عن جميع المحكومين والمباعدن السياسيين، بالإضافة لعدة مواد تطالب بتوحيد القضاء وتوحيد أسعار النقد وتوحيد الأنظمة الإدارية واستخدام أهل البلاد بالوظائف الرسمية.

(١) السفرجلاني ص ١١٩.

وبعد أن تعرف المندوب إلى رجال الوفد قال لهم: يظهر لي أنكم تمثلون طبقات الشعب المختلفة وأراني سعيداً بالتحدث إليكم.. وعندما دار البحث عن الوحدة أجابهم: إن الوحدة بيدكم فاتحدوا مع بعضكم عليها ثم طالبوني بتطبيقها - فأجابوه إن الوفود بأسرها مجتمعة على طلب تحقيقها وإذا أردت أن تتأكد عليك بالاستفتاء. فأعاد قوله لهم: وحدوا الصفوف أولاً وبعد إذ لكل حادث حديث.

وجاء إلى بيروت بعد ذلك وفد من حلب برئاسة إحسان الجابري وقدم للمندوب السامي مطالب حلب التي لا تختلف عن مطالب دمشق، ودارت بين الوفد والمفوض السامي مناقشات ردد فيها المندوب قوله بتوحيد الصفوف أيضاً، فعاد الوفد من بيروت واجتمع في طريقه في دمشق إلى رجال السياسة وبحثوا بضرورة توحيد المطالب والمواقف لتحقيق الأهداف.

تلا ذلك في نيسان سنة ١٩٢٥م وصول بلفور صاحب الوعد المشؤوم إلى عاصمة الأمويين فاستشاط الشعب غضباً واستمرت المظاهرات والاحتجاجات حتى غادر البلد بطلب من السلطة التي خشيت غضبة الجماهير ونضالها. وفي أيار كانت زيارة المسيو برونه النائب في الندوة الفرنسية وأطلع بنفسه على مطالب الشعب في دمشق وسوريا ونقل ذلك للمراجع الفرنسية بباريز.

كما كان في نفس هذا الشهر أيار سنة ١٩٢٥م وصول وفد من الجبل لإعلان السخط على سياسة الثورة الفرنسية والبحث في الوحدة والاستقلال والتحرير.

وكان الاجتماع الأول مع الوطنيين بدمشق بدار الأستاذ قاسم الهماني بأوائل أيار سنة ١٩٢٥م^(١) حضره الأمير حمد الأطرش وبحث فيه الثورة وإضرامها^(٢). ثم تلا ذلك اجتماع آخر في منزل الزعيم الشهبندر حضره لفييف من زعماء الجبل منهم: نسيب الأطرش وعقلة القطامي وصياح الأطرش وفؤاد عز الدين الحلبي ونجم عز الدين الحلبي وفضل الله هنيدي. وأسعد مرشد ويوسف العيسمي ومتعب الأطرش.

(١) السفرجلاني ص ١٢٤.

(٢) كما ورد خبر هذا الاجتماع بمذكرات سلطان الأطرش ج ٥.

ويذكر السفرجلاني: أنهم أقسموا عهداً فيما بينهم على العمل لتحقيق الوحدة والاستقلال وتأمين مطالب الشعب ولن يرضوا عن ذلك بديلاً حتى الموت^(١).

طلائع الثورة في الجبل

شكلت دولة الدروز بقرار من الجنرال غورو^(٢) وقد حققت هذه الدولة التي لم يتجاوز عدد سكانها ٥٠ ألفاً لها علماً بخمسة ألوان ومجلساً تمثيلاً يكاد يكون أكثر أعضائه أميين أعيد انتخابه عدة مرات.

توفي الأمير سليم الأطرش في (١٥ أيلول سنة ١٩٢٣) حاكم الجبل. وهو في ذروة شبابه ورجولته، وقيل إن الفرنسيين دسّوا له السم في الطعام ليتخلصوا من عهد قلعوه على أنفسهم "حاكم الجبل من أبنائه"^(٣).

بدأ بعد ذلك كاربييه يعمل بسلب أبناء الجبل حق تعيين الحاكم منهم بالتآمر والدس. وكان الحاكم ينتخب من قبل المجلس الإداري الممثل لمناطق الجبل وعائلاته الكبرى وكانت الزعامة السياسية للأمير حمد الأطرش بدار عري دار الزعامة ((المتنافسون على منصب الحاكم" عبد الغفار السويداء - متعب رساس - حمد عري وكلهم من آل الأطرش)) يقول منير الريس: لما شمر كاربييه لسلب منصب الحاكم من أبناء الجبل. أخذ يستدعي كبار آل الأطرش ويقابل كل واحد على انفراد، فيقول لكبيرهم سناً عبد الغفار الأطرش مثلاً:

لماذا يكون حمد الأطرش الشاب الغرّ حاكماً على الجبل؟ ولا تكون أنت الحاكم العاقل الرزين الذي ترغب فرنسا بأن تتعاون معه؟! وعندما يتحدث عبد الغفار عن تقاليد الجبل وحصر الزعامة بدار عري يجيبه المستشار: ولكن هذا شيء سخيف!! ثم يضيف قائلاً لكن اتفاقنا مع زعماء الجبل ينص أن يكون الحاكم من أبناء الجبل فحسب وليس من إشارة إلى دار عري وفرنسا ليست مقيدة بتقليد يأتي ييافع غر إلى منصب الحاكم. ثم استدعى لمقابلته عميد آل عامر ليقول له: إن

^(١) السفرجلاني ص ١٢٤

^(٢) مذكرات: ج ٦.

^(٣) الريس ص ١٤٦.

عائلتكم أكبر من عائلة الأطرش ونحن نرغب أن تكون أنت الحاكم في الجبل وأنها لفرصة سانحة لنقل الزعامة لآل عامر وهم أكبر عائلة في جبلكم. وهكذا أوقع بذور الفتنة بين آل الأطرش أنفسهم وبين آل عامر، وخلق عدداً من المنافسين للأمير حمد الأطرش على منصب الحاكم ظن كل واحد منهم قابله كارابيه أنه الأمير لدي فرنسا؟

لقد ظهرت الخلافات جلية في أول اجتماع عقد لتسمية خلف للحاكم الراحل وقد ازدادت الخلافات وتشعبت الآراء في المجلس التمثيلي فاقترح كارابيه عند ذلك تأجيل الموضوع بسبب اختلاف الآراء، واقترح تعيين نفسه وكيلاً للحاكم حتى تتفق الآراء فظن كل واحد من الطامعين أن التأجيل لصالحه. واستغل كارابيه بعد ذلك سلطته لتعميق الخلافات حتى كادت تؤدي إلى حرب أهلية في الجبل للخلاف المستعصي على منصب الحاكم، فأوحى للذين يخافون من تطور الخلاف أن يقترحوا الوكيل أصيلاً فكان له ما أراد^(١).

هنا يذكر الدكتور قرقوط: إن كارابيه عندما جمع المجلس الوطني السوري في أكتوبر ١٩٢٤ - وعدد أعضائه ١٢ عضواً فقال لهم: وهو يضع يده بقبعته السوداء "من يريد انتخاب حاكم وطني يضع ورقة سوداء ومن يريد اختياري أنا يضع ورقة بيضاء" فاختير بالإجماع حاكماً للجبل وقطع الخط على حمد الأطرش "دار عري وعبد الغفار" دار السويداء

دكتور قرقوط ص ٦٥.

هكذا انتزع كارابيه هذا المنصب من أبناء الجبل وبدأ يحكم بالضغط والتهديد والوعيد والاعتقال والسجن. ليذل بظلمه الرؤوس التي وقفت بجانب الحق ويرهب سائر أبناء الجبل.

وهنا نذكر قول الشهبندر بمذكراته: "هذا الحاكم الجديد الذي طبقت شهرته" الخافقين بفضل نوادره القرقوشية وسيرته الأبيقورية "الكابتن كارابيه" سار في بادئ الأمر سيرة لين وعطف حتى تمكن من العض فنهش. وكان إذا ذهب

(١) نفس المرجع ص ١٤٩.

إلى قرية ولم يخرج أهلها لاستقباله بالمواكب والمهرجانات فرض على أهلها الغرامات الباهضة وحشاها في جيبه كما فعل في قرية عرمان مثلاً...!!

وحكاية هرة الملازم "موريل" مشهورة عندما ضاعت في السويداء فغرم الأهلين بسببها بعشرة ليرات ذهبية، وعندما انكسر مصباح البلدية فغرم الأهالي بعشرة جنيهات - ثمنه مضاعفاً - وإن "دي بوشل" الجندي العريف أطلق النار على محمد بيك عز الدين الحلبي مدير العدلية لخصومة بينهما فأخطأه ولم يحاسب الجندي على جنايته المشهورة ولو بكلمة تأنيب...!! وقد استاء مرة من فهد بيك الأطرش خريج الأستانة قائم مقام صلخد فضربه بيده ورجليه بالسياط على مرأى ومسمع جميع الناس: وعند ما جاء وفد من نجران يشكو البدو السلوط الذين تسلطوا على مزروعاتهم يتلفونها ويسرقونها طردهم قائلاً: "هالعله الملعونة يلزمها هالدواء الرزيل"^(١).

وكان إذا سمع وشاية من أحد الجواسيس على أحد الأعيان أو شيوخ العقل أرسله حالاً إلى السجن ومن غير محاكمة أو استتطاق وشغله بتكسير البحص على الطرقات كما فعل بسليمان بيك نصار شيخ قرية سالي وعين أعيانها. وبالشيخ صالح طرييه وهو علم من أعلام الفقه والصلاح بالجبل. ونكل بال الأطرش وجميع زعماء الجبل الكبار لسحق نفوذهم. ومن نوادره المشهورة ان بعض الجواسيس ذكر له أن الدروز إذا تتحنحوا، فإنهم يقصدون بتحنحهم لعن من يمرون به أو شتمه . فالويل عندئذ لمن يصاب بالزكام أو التهاب الجيوب. وقد منع الاجتماعات العامة واستقبال الضيوف بالمضافات. ويضيف الدكتور الشهبندر قائلاً: كثيراً ما كنا نقول في مناطق الثورة إن الاعتراف بالجميل يقضي بوضع صورة للكابتن كاريبيه مع مجموعة صور المؤسسين لنهضة سوريا لأنه من العوامل الرئيسية التي لفتت الأنظار إلى سر المستعمرين وسرّعت الخطا للوصول إلى الحرية^(٢)....!!

^(١) من مخطوطة للمجاهد تاييف عجاج نصر.

^(٢) الشهبندر: الثورة السورية الوطنية ص ١٢.

وصف الأوضاع السيئة في الجبل قبيل الثورة

هلال عز الدين الحلبي من المجاهدين الأوائل الذين أبلوا بلاءً حسناً في كثير من المعارك كتب عدة قصائد لزميله من قادة الثورة المجاهد علي عبيد والقصائد والأجوبة فيها تصوير دقيق لأوضاع الجبل السيئة قبيل ثورة سنة ١٩٢٥. القصائد من ديوان علي عبيد "ربابة الثورة".

أولاً: مقتطفات من قصيدة للمجاهد هلال عز الدين

أمس المساء نطيت روس العرازين	وراعيت بالبيداء يمين ويساراً ^(١)
حدثت قلبي بالأمور الصعيبين	بركان يسعد داخل الكبد ناراً
يا حيف يا دروز الجبل يا شياهين	عقب البياض موشحاً بالسماز
عقب الطرب والكيف وسط الدواوين	لعبت بها الطمّاع وأضحت دماراً
يا حيف يا أصحاب السيوف الشطيرين	الطمع خلّى حالكم بالعزارة ^(٢)
الذل حاق كباركم والغلامين	الحصن المنيع اندك هدم سواراً
وأبو الحصيني شاخ والذبيخ ياشين	وسبع العرين ملوبداً بالمغار ^(٣)
وشبابنا هلّي على الحرب صلفين	يا حيف نقل سلاحهم يا خساراً
ولا بد ما تمضي سنين الرديين	ويزول هلّي قاعد عالصداراً

^(١) أشرح^١؛ ^(٢) العززال؛ المكان المرتفع.

^(٣) المغارة؛ الذل والإهانة.

^(٤) الذبيخ؛ ذكر الضبع - ياشين؛ يا صاحب.

واللي قرضنا يا علي مستعدين نوفي سداد الحرع دور باراً^(١)

جواب علي عبيد يصف الأحوال السيئة في الجبل

جتنا هدايا ما نهن مثالي حيي الهدايا والهدى وكل من ساس

كثر التعب يا شيخ هذا جهالي ما زال أصل العيب كله من الساس^(٢)

مات الشريف وساد أهل الرزالي ولأهل النميمة صاير اليوم فرناس^(٣)

ريك حكم بالدور لأهل السفالي دوراً قصير ونفتكر زرعهم قاس

ريك حكيم وعالم بكل حالي وبعد الحصيد يا فتى موسم دراس

حالة جبلنا اليوم كله خجالي أكبر رجاله بالطرق صار كناس

واللي بغزو اليوم بذل الموالي ونشر الكتابة عامللا وساير الناس^(٤)

وتعريف أهل الحل هذي العمالي ما ظن سنّها الزير يقوم جسّاس

مجرد فساد إنسان صاحب جهالي ضرب وإهانة وكسر حجار بالفساس

وتعودوا يا شيخ عاها لفعالي حتى الغرامة من ثمن ست البساس^(٥)

ويتزاحموا ويتمرمغوا كالموالي وبعضهم يمشون بسلاح وقواس

^(١) عندي باراً: سداد كامل غير منقص. والقرضة هنا: الإساءة المسبقة.

^(٢) الشرح^(٥): من الساس: من الأساس

^(٣) فرناس: الأسد الضاري

^(٤) الحث على بذل المال للتعريف بمساوي الأجنبي.

^(٥) إشارة إلى "هرة" اليوتنان موريل.

وان قلت للإنسان أكتب مقالتي ولا ترجى بمسألة تكون نوماس
صدّ وقفى بحقوقنا لا يبالى وعند القضية يدعى سيد الناس

إعلان الثورة السورية الكبرى ومعركة الكفر

تعتبر الثورة السورية الكبرى التي تفجرت سنة ١٩٢٥ من أهم العوامل التي أدت لطرده الاستعمار الفرنسي وتحقيق الجلاء، بشمولها كافة المناطق في سوريا ولبنان وبمعاركها الضارية التي كلفت مئات الشهداء وبأهدافها العامة التي طرحتها في الوحدة والحرية والاستقلال.....!!

فمنذ وطأت أقدام الفرنسيين أرض الوطن تواترت الثورات من لبنان وجبال العلويين في الغرب حتى البوكمال ودير الزور في الشرق ومن حلب وحمص وحمّاه حتى زرعا والسويداء في الجنوب.

- ففي مطلع سنة ١٩٢٥ حل الجنرال ساراي محل الجنرال ويغان المفوض السامي في بيروت وكانت الحركة الوطنية داخل سوريا على أشدها عندما حصلت الاتصالات بين الأقطاب في دمشق والمدن السورية الأخرى، وكان حزب الشعب برئاسة الدكتور الشهبندر قد وجه أنظاره إلى الجبل واتصل بزعمائه المعروفين بوطنيتهم وعقدت المواثيق الجازمة بأن يتحد الجميع بالعمل على إخراج الفرنسيين وضم الأجزاء السورية بعضها إلى البعض. وأصبح نضال الجبل مقترناً بمعنى جديد لم يتضح أيام مقاومة الأتراك وهو أن مقاومة الاستعمار ترتبط بالعمل القومي الشامل في خطوة واحدة لجمع أجزاء سوريا واستقلالها. وكان الكابتين كارابيه الحاكم في الجبل قد تمادى في ظلمه واستبداده وبالع في تحديه للوجوه والأعيان وإجبار المواطنين على توقيع عرائض تأييد يستند إليها لتنفيذ خطته في القضاء على خصومه.

- في ٧ نيسان ١٩٢٥ اعتقلت السلطة الفرنسية بعض أعيان الوفد الذي كان يفاوض الجنرال ساراي بدمشق لرفع المظالم وتنفيذ الاتفاقية التي ورد فيها أن يكون حاكم الجبل من أبنائه، وكان بطليعة المعتقلين عقلة القطامي، وقد

استشاط ساراي غضباً عندما شاهده مع الوفد لأن وجوده كان يمثل التعاون بين المسلمين والمسيحيين على طرد الفرنسيين من الوطن وهذا لم يكن يتوقعه ساراي.

في ١٨ حزيران سنة ١٩٢٥ سافر وفد كبير من أعيان الجبل برئاسة الشيخ يوسف الهجري لمقابلة ساراي في بيروت بناءً على توسط "أوغست برونييه" أحد نواب البرلمان الفرنسي، وكان يحمل عريضة جاء فيها:

إن الجبل جزء لا يتجزأ من سوريا وتجمعه بها جامعة اللغة والجنس، وتربطه بها روابط اقتصادية محكمة الحلقات، ونطلب من فرنسا أن يسود القانون في الجبل وأن تسمع شكاواه وأخيراً نرجو إبدال كارابيهيه بحاكم آخر يعمل على تنفيذ مطالب الناس العادلة. لكن ساراي رفض استقبال الوفد وهدد أعضائه بالاعتقال والنفي إن لم يعودوا في الحال على أعقابهم، لذلك زادت النقمة على الفرنسيين بعد وصول الوفد إلى السويداء، كما زادت عزيمة الثورة على التحرك ضد السلطة الفرنسية لطردها.....!!

- في ١٨ تموز سنة ١٩٢٥ تم إعلان الثورة على الفرنسيين وذلك بعد أن يؤس جميع الوطنيين الأحرار من تغير سياسة السلطة الفرنسية إتجاه الوطن وإصرارها على تطبيق سياسة الظلم والإذلال، فتداعوا إلى اللقاء في القرية في ١٨ تموز وأعلنوا الثورة على الفرنسيين مباركين خطوات سلطان الأطرش والقادة الوطنيين في سبيل الدفاع عن كرامة الشعب وحفظ الشرف والعرض والسير في البلاد نحو الوحدة الوطنية.

وكانت القرية تعج بالجماهير والفرسان والبيارق وحدا الأغاني الحماسية وصهيل الخيول والنخوات والهتافات التي تعلن كلها الثورة على السلطة الفرنسية الجائرة..!! وتوجه الركب كما كان مقرراً إلى المقرن القبلي: إلى بكا - أم الرمان - الغارية - المشقوق - متان.

كان التحاق المجاهدين قليلاً حتى قرية عرمان التي استقبلتهم بحماسها المعهود، وكثر عددهم بعد الاتصال بالجهة الشرقية من الجبل، وحلقت فوقهم طائرتان حربيتان أسقطوا واحدة منها برصاص البنادق. وكانت حملة نورمان

انطلقت من السويداء وهي مدججة بمختلف أنواع الأسلحة لملاحقة الثوار في المقرن القبلي، وعندما اقتربت من القرية حذرها علي شقيق سلطان من دخول البلد فاتجهت شرقاً إلى الكفر وخيمت فيها قرب عين موسى.

وقد أنذر أسعد مرشد من مشايخ الكفر القائد نورمان ثلاث مرات متوالية كما سلمه رسول سلطان الأطرش رسالتين خطيتين تطلب إليه الأولى تجنب الاصطدام وفتح الطريق أمام الثوار إلى السويداء والثانية موجهة للسلطات الفرنسية العالية تحملها مسؤولية المصادمة.

ومع ذلك لم يحفل نورمان بالإنذارات ولا بالرسائل وكل ما قام به هو أنه ترفع بجنوده إلى موقع وعمر مستدير يشرف على الطرقات، واستعمل من أنواع التهديد والوعيد للذين أنذروه ما يدل على غبائه وغروره عندما قال لهم: إنه بمجرد الرشاش الذي يحمله قادر على قتل آلاف من الثوار.

- الكفر الملحمة الأولى: في ٢١ تموز سنة ١٩٢٥

سالت الجموع من عرمان مشاة وبيارق وفرسان يصحبهم بعض المحاربين من بدو الجبل، وبما أن الثوار في صلخد أعفوههم من حرق البعثة الفرنسية فيها حيث أنهم نفذوا ذلك بأنفسهم، فقد استمرت الجرود بمسيرها حتى العين، وقد كان مقرراً إقامة معسكر للثوار في خربة العين لكن سببين ألغيا هذه الفكرة: أولهما الخوف من طائرات العدو التي يمكن أن تدمر هذا المعسكر، والثاني وصول بيرق ملح بمشاته وفرسانه المتحمسين للقتال والذي استمر زاحفاً باتجاه الكفر دون التوقف بالعين وراحت تسابقه كافة البيارق والجموع. وهنا يقول الدكتور الشهبندر:^(١)

الموقع التي حصلت فيه الملحمة من أوعر وأحصن ما رأت عيني، فقطع الصخر مصطلفة فيه بشكل مستدير اصطفافاً يكاد يكون مصطنعاً وكل واحدة منها متراس قائم بنفسه، ويؤلف مجموعها شكل بحيرة جافة لا قبيل لأحد بمفاجأتها ومهاجمتها اللهم إلا من أوتي إيمان الأنبياء وعزم الجبابرة.

(١) الثورة السورية الوطنية ص ٢٢.

- انقسم أشاوس بني معروف بقيادة سلطان باشا الأطرش إلى قسمين وخضوا من جهتين متقابلتين، وكان منظرهم وهم يقتحمون نيران البنادق من أرباب المناظر، ومن أراد أن يقدر حرارة الحماسة التي كانت تغلي في صدورهم فحسبه أن يتذكر أنهم قطعوا تلك المسافة من صلخد إلى الكفر عدواً لم يقفوا إلا حيث أوردوا خيولهم ماء في منتصف الطريق وأوردوا سيوفهم دماء في منتهاه.

- لم يمض عشرون دقيقة على الملحمة بالسلاح الأبيض حتى قضوا على الحملة قضاءً مبرماً فلم يفلت منها إلا بعض أفراد استطاعوا نقل خبر الكارثة إلى تومي مارتن في السويداء. تجاوز عدد الجنود المتين والسنتين، وكانت خسائرنا أربعين شهيداً بينهم مصطفى الأطرش شقيق سلطان.

- إن الداخل اليوم إلى هذه البحيرة أوائل أيلول سنة ١٩٢٥ وقد جفت دماؤها يرى فيها أرجل الجنود مستترة وراء الصخور ومن هنا وهناك جماجم تبصص وهي مكشورة عن أنيابها كأنها منكمشة من هول الضربة التي نزلت بها. ويؤكد الثقة أن الجمجمة التي على الباب هي جمجمة الكابتن نورمان كأنها تحرسها من سباع البروضيور الفلاة...}}

وكان لهذه الملحمة شأن خطير في تاريخ النهضة السورية:

أولاً: لأنها جعلت الثورة أمراً مبرماً لا رجوع عنه.

ثانياً: لأنها دلت على أن الحق الصريح ولو نقصته العدة والعدد قادر في كثير من الأحيان على مقاومة القوى ولو أيدتها الآلات الضخمة والجحافل العظيمة.

نتائج معركة الكفر

كان من نتائج هذا النصر المؤزر في الكفر ما يلي:

١- جعل من الثورة أمراً مبرماً وأغلق الطريق بوجه كل من يسعى للتوفيق بين المطالب الوطنية والغايات الاستعمارية.

٢- أبيتد الحملة الفرنسية عن آخرها تقريباً وقتل القائد ومعاونوه في مكانهم وطارد المجاهدون بقايا الحملة الشاردة فلم يصل إلى قلعة السويداء إلا أنفاس

قلائل أخبروا القيادة بما حصل، وفقد الفرنسيون جميع مناطقهم الدفاعية في الجبل ليتحصنوا في قلعة السويداء مع عائلاتهم، وحاصر المجاهدون القلعة، كما نفخوا في جميع قرى الجبل روح الثورة فهبت القرى بأجمعها تلبي نداء الوطن وتجاوبت أصداء هذا النصر في كافة المدن السورية وأريافها.

٣- على الصعيد الوطني، أذكت الروح النضالية في كافة المناطق السورية واللبنانية ومهدت الطريق لانتشار الثورة بعد أن قدمت الدليل القاطع على أن أبناء الجبل على اختلاف هيئاتهم وطبقاتهم وطوائفهم لا يتخلون بسهولة عن مبادئهم الوطنية ورسالتهم القومية مهما تضافرت على مجتمعتهم وحاولت تشويه سمعتهم قوى الشر والفساد داخل البلاد وخارجها.

٥- يضيف الدكتور الشهبندر في مذكراته نتيجة هامة لهذه المعركة إذ يقول: أُلقت هذه المعركة يعبء القيادة العامة في الجبل مدة الثورة على عاتق الزعيم الذي انتصر فيها هذا الانتصار الباهر، معنى ذلك أنها أوجدت من الفوضى التي يعيشها السوريون نواة صالحة للنظام وتوحيد المساعي لبلوغ غايات حربية معينة. ولولا ذلك لكان عدد الذين يتسّمون غارب القيادات الحربية بحق وبغير حق لا يحصى لأن عاداتنا أن من أنس في نفسه قمحة من الحياة توهمها جبلاً من القوة.

ج- قصائد للمعركة

وقد خلد الكتاب والشعراء هذه المعركة بكثير من المقالات والقصائد منها قصيدة الفن التي يغنيها خمسة أو ستة أشخاص في صف واحد يدورون حول نقطة محورية. الشخص الأول هو القصاد يغني منفرداً ويردد البقية اللازمة وهي المقطع الأول مثل:

يا راكب سوهجاً^(١) فـات من بكار النجديات
 قوطر^(٢) وذيلي كتابي بالعجل إِيّاك تبات
 قل للفرنساوي كنّو عالحرب ناوي
 مش بعقب المهاوي يزهب ويطيلع حملات
 حملاتو ما بيلهونا قـروا لا تنكرونا
 بالكفر جريتونا سبعة من القواد ومات
 مشوا علينا هالقوات تهدر معها الدبابات
 وبالسما هالطيارات مدافع والرشاشات
 أول حملة جيناها بالكفر وليناها^(٣)
 بواريد كـسبناها ومدافع نقاليها
 روح يتغطرس نورمان يهدد بذبج الفرسان
 بربع ساعة بخبر كان هو وعسكرو ما بات
 اسماعيل بيك وشهاب صقور مصطفى ينطح طابور
 كفو^(٤) نصّار البربور جاهم من كل الجهات

(١) السوهج: المطية السريعة. حصان أو ذلول.

(٢) قوطر: ذهب.

(٣) وليناها: استولينا عليها.

(٤) كفو: فيه الكفاية.

- ومن القصائد الجيدة التي قيلت في معركة الكفر قصيدة شاعر الثورة صالح عمار^(١) :

عرمان سالت عالکفر....

وقد وصف الشاعر صالح عمار هذه المعارك بقصيدته المشهورة التي تعتبر من أهم الأغاني التي ردها الفرسان: "أغاني الجبل" ٢١/تموز/١٩٢٥.

وصف ملحمة الكفر

البارحة جاننا خير	ريّك فتل دولابهـا
عرمان سالت عالکفر	ذبّح العراضى ^(٢) دابهـا
صرية ^(٣) ملح توطا الخطر	حس المـصوّت ^(٤) جابهـا
فرسان لوعجّة عكر ^(٥)	جمع العدا ماتهابهـا
الحملة غدت مثل الشجر	لما غوي حطابهـا
ما ظل منها ولا نـفـر	وتشالخواها ^(٦) ذبابهـا
المقـبـلون القبـلى انتـصر	ضرية خبطهـا ^(٧) وصابهـا

^(١) الثورة السورية الكبرى ص ٢٣ الشهبندر.

^(٢) العراضى: فيالق الجيش

^(٣) الصرية: الجماعة.

^(٤) الصرية: نذير الخطر.

^(٥) عجة عكر: أثارت الغبار.

^(٦) تشالخواها: قطعوها.

^(٧) خبطها: رماها.

سـكـر حـصـون أبـوابـهـا	مـورـيـل ^(١) بـالـقـلـعة انـحـصر
عـسـاكـراً و طـوابـهـا ^(٢)	جـرّد عـلـيـنـا مـن البـحـر
صـاح و جـاذبـها و جـابـهـا	سـلـطـان عـالـصـايـح أـمـر
كـثـر العـطـب ^(٣) بـجـنـابـهـا	و تـقـابـلـوا عـنـد العـصـر
دـم العـسـاكـر سـاـجـد	بـرـق و رـعـد هـل المـطـر
تـسـاه القـلـاع مـبـحـسـابـها	يـا ذبـحـة شـرقي بـصـر
تـر عـنـف لـحـد نـصـابـها ^(٤)	و سـيـوف مـن دـم الحـمـر
و مـدـرعات جـابـهـا	و لـيـنـا ^(٥) المـدافـع و الزخـر ^(٦)
حـنا كـفـيـنـا غـيـابـهـا	قـولـون لـي مـا حـضـر
نـار الحـرـب شـبـابـها ^(٧)	سـلـطـان حـريـب الـوـزـر
و لـيـوـث ^(٨) تـحـمـي غـابـهـا	لـيـنـا ^(٨) المـراجـل عـن صـغـر

(١) موريل: حاكم الجبل الفرنسي.

(٢) طوابها: مدافعها.

(٣) العطب: الإصابات.

(٤) نصاب السيف: مقبضه.

(٥) ولينا: استولينا على.

(٦) الزخر: الذخائر.

(٧) شبابها: مولعها.

(٨) لينا: لنا.

(٩) ليوث: أسود.

مرحوم من زار القبر لحقوقنا طلابنا
يا مصطفى أنت القمر يا حيف زرت ترابهنا

صالح عمار أيضاً في جوفية

يا خالق علم الوكاد وانت صب سوق المزاد^(١)
وأسمعت نار الحرايب ثارت بكل البوادي
عاضدوا سلطان الأطرش وانتخوا عيال النوادي
واعتلوا من فوق ضمّر مثل غزلان الحمادي
والبيارق حمرا تومي تحتها علق الحداد
يوم عالعين لفينا وبالكفر صار الميعاد
مرقعين العبي^(٢) صالوا كارههم^(٣) ذبح الأعادي
استبسوا بريع ساعة رّوحوا الحملة سمادي^(٤)

^(١) سوق المزاد: سوق الحرب.

^(٢) مرقعين العبي: عامة المقاتلين.

^(٣) كارههم: عاداتهم.

^(٤) رّوحوا الحملي سمادي: أي أبادوها.

obeikandi.com

الفصل الثاني

معركة المزرعة

أروع معارك العرب ضد الاستعمار في النصف الأول من هذا القرن

بعد معركة الكفر أخذ الفرنسيون يحشدون جنودهم وأسلحتهم في محطة أزرع وسهول حوران المجاورة للزحف على الجبل وغسل عار هزيمتهم في ملحمة الكفر الموحجة. وقد قام سلطان الأطرش ومرافقوه بجولة على قرى القرن الغربي لاستشارة الهمم وتقرر على إثر ذلك عقد اجتماع عام على نبع قراصة لدراسة الموقف بصورة عامة والبحث بمسألة الحشود الفرنسية التي زاد عددها على اثني عشر ألف مقاتل حسب تقدير الخبراء، عدا الدبابات والمصفحات والطائرات الحربية والمدافع الثقيلة والخفيفة وكان الشاعر قصدهم حين قال:

ملأن الجو أسلحة خفافاً ووجه الأرض أسلحة ثقالا

أ- مؤتمر قراصة^(١) تموز ١٩٢٥

ما كاد يأتي موعد الاجتماع حتى أخذت ييارق القرى تتوارد إلى المكان من مختلف أنحاء الجبل حتى بعض أفراد من بدو المساعيد والسردية. وهنا وصل عبد الغفار الأطرش الذي أطلق سراحه الفرنسيون ثم مروا به على جيوشهم الجرامة وقواتهم الحربية الضاربة الكثيرة للرعب والخوف، وطلبوا إليه طرح موضوع الصلح مع الثوار. فوقف على مرتفع (كوم قراصة) وخطب في الناس حسب ما ورد بمذكرات سلطان الأطرش قائلاً:

إن فرنسا الدولة القوية الجبارة أطلعتني قبل أن أصل إليكم على جيوشها الجرامة وقواتها الضاربة المختلفة وطلبت مني أن أكون وسيطاً بينهم وبينكم لوقف العمليات الحربية وعدم التعرض للجيش الزاحف بقيادة الجنرال ميشو إلى مدينة

(١) مذكرات ح ٨.

السويداء، وقطعوا لي عهداً بالعفو عن جميع الثوار الذين اشتركوا بموقعة الكفر دون قيد أو شرط ما عدا سلطان حيث اشترطوا أن يغادر البلاد ريثما يصدر قرار بالعفو عنه بعد مدة قصيرة.

وفي هذه اللحظة وصل إلى المكان المجاهد مصطفى أبو الحسين من حوران وقدم لسلطان الأطرش رسالة من بعض الزعماء في حوران يقولون فيها أنهم لا يستطيعون في الوقت الحاضر المشاركة بالثورة (مذكرات الحلقة ٨) فطوى الرسالة ووضعها في جيبه، غير أن أنظار الجمهور ظلت متجهة نحوه كأنها تستفسر منه بإلحاح عما جاء فيها.

وقد أنقذ الموقف سليمان نصار بذكائه وسرعة بديهته إذ طلب من الباشا الرسالة، ففتحتها وارتجل نصاً آخر من عنده وهو ينظر إليها فقال:

حضرة ابن عمنا سلطان باشا الأطرش الأفخم، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نعلمكم أننا رهن إشارتكم في سبيل خدمة الوطن ونحن بانتظار العلم منكم لنلتحق بجيشكم والله يحفظكم وينصركم على الأعداء... ثم تلا من ذاكرته أسماء زعماء حوران المعروفين، فأثار بقراءته هذه حماسة الجمهور حتى كانت أصوات النخوات والعراضات تشق عنان السماء.

وما أن عاد الهدوء إلى الجمهور من جديد حتى التفت الباشا إلى عمه عبد الغفار وقال له على مسمع الجميع وكجواب للفرنسيين:

إننا لم نعلن هذه الثورة كي نرضخ لشروط الفرنسيين ونسمح لجيوشهم الجرارة بالدخول لبلادنا دون مقاومة ليغدروا بنا ويسومونا سوء العذاب وينفوك وغيرك من الزعماء ظلماً وجوراً.

إننا أعلننا الثورة لنصون العرض والكرامة ونحقق بحد السيف حرية البلاد واستقلالها، ثم اقترب من عمه وقال له: أنك تخرج الآن من السجن والمنفى الحمد لله على سلامتك، وأنت أحوج حالياً لرؤية أفراد أسرتك الذين ينتظرون عودتك بفارغ

الصبر في قنوات^(١) . ثم اختلى القائد بأعيان الثوار على جناح السرعة واتخذوا القرارات التالية بالإجماع:

قرارات مؤتمر قراصة

١- متابعة الثورة والوقوف في وجه الجيش الفرنسي الزاحف لمنع من الوصول إلى السويداء.

٢- اعتبار القوات المحاربة التي حضرت الاجتماع نواة الجيش الوطني المنوي إعداده وتنظيمه في المستقبل.

٣- اتباع تقاليد الجبل الحربية المتوارثة باعتبار بيرق كل قرية وحدة حربية كاملة يؤمن كل محارب فيها وعلى نفقته الخاصة سلاحه وذخيرته ومؤنثته وأن تكون قيادة كل وحدة مرتبطة مباشرة بقيادة الثورة العامة.

٤- فتح جبهة حربية تمتد على جانبي طريق أزرع السويداء من قرية تعارة وقراصة شمالاً حتى قريتي الدور وسميع جنوباً.

ب- المناوشات الأولى: ٣٠ تموز سنة ١٩٢٥

انتشرت قواتنا فعلاً في المواقع المعينة لها على خط متعرج بطول ٨ كم تقريباً وكان مقر القيادة في قلب الجبهة شمال رقة الصقر، وفي تموز بدأت المناوشات الأولى قرب بصر الحرير عندما تقدمت القوات تدعمها المصفحات والمدافع لاحتلال جسر قرب بصر الحرير فهاجمها الثوار بمعركة حامية التحموا معها بالسلاح الأبيض واضطروها للتقهقر، وخسر الفرنسيون باعترافهم ضابطاً وسبعة جنود قتلى وأربعة عشر جريحاً (منير الرئيس عن كتاب جيوش الشرق) وكانت خسائرنا ثلاثة شهداء هم قاسم عزام محمود غيث وسليم سلام وجريح واحد هو حمزة درويش.

(١) مذكرات ح. ٨.

جـ- الكمين الغادر

بدأت القوات بزحفها من أزرع وبصر الحرير في أول آب سنة ١٩٢٥. فما وضع النهار إلا والجيش الفرنسي يزحف بنسق الحرب منتشراً على يمين ويسار طريق السويداء لعدة كيلو مترات - تحمي جناحه الأيمن قوة كبيرة من الخيالة، يتقدم قبله رتل من السيارات المدرعة والمصفحة بمدافعها ورشاشاتها ويكشف مجاهل طريقه سرب من الطائرات الحربية، تقصف كل تجمع للشوار بطريقه. تقدمت قوات العدو بسرعة حتى مفرق طريق الدور عندما صب عليه الشوار رصاص بنادقهم وهنا حمي وطيس المعركة فراحت الطائرات تقصف تجمعات الشوار ومتاريسهم بقنابلها الكبيرة التي زلزلت الأرض وبعثت الذعر في الخيول التي ازداد صهيلها، وكان الضغط كبيراً على جناحنا الأيمن قرب قرية الدور، حيث حصل الكمين الغادر بمعركة تل الخروف عندما حفر العدو خنادق بالسهل شرق تل الخروف كمن فيها الجنود برشاشاتهم وبنادقهم، ثم استدراج فرساننا الفرسان السباهيون هاربين أمامهم حتى وقعوا بالفخ بين الخنادق حيث القناصة ومرابض الرشاشات العسكرية فأ نصب على فرساننا الرصاص كال مطر وسقط منهم ثلاثون شهيداً دفعة واحدة من خيرة فرساننا. يقول سلطان الأطرش: إنهم كانوا ذخيرة أملنا بالنصر - من بينهم حمد البربور وأخوه أجود وابن عمه أحمد ... وكان من الجرحى الشيخ صالح طرييه من السويداء وزيد عامر من البثينة.

د- مفتاح النصر ٢ آب سنة ١٩٢٥

بعد كمين تل الخروف فتحت ثغرة في جناحنا الجنوبي تقدمت منها كوكبات الخيالة وسرايا المشاة وعربات النقل المعادية والدبابات المصفحة مما اضطر قيادة الثورة للانتقال أمام الجيش نحو المزرعة لإقامة خط دفاعي جديد يمنع تقدم الحملة من الجناح الجنوبي. التقت على نبع المزرعة بنفر من المجاهدين من السويداء على رأسهم المجاهد الكبير حسين مرشد فأخبروهم أن طريق السويداء سدها الأهالي وأقاموا عليها الحواجز وأقسموا على عدم الترحيز من مواقعهم ولو مرت آليات الجيش الفرنسي على أجسادهم. وعندما بلغوا نبع الفارعة قرب المغيب، وكانوا قد

أهلكهم الجوع والتعب اقترح الأكثرية الانتقال إلى قرية سليم. وهنا يقول سلطان الأملش بمذكراته: وبينما نحن بمضافة يوسف مسعود سمعنا جلبة خيول تدخل القرية وصيحات فرسان تقول: البشرى لنا.....البشرى لنا. هيينا بسرعة لاستقصاء الخبر، فدخل علينا بعد لحظات، فرحان زيتونة وعبطان النجم وفارس مفرج وهم بحالة تعب وانفعال شديدين، وبادرنا الأول بقوله: نعلمك يا باشا أن أهالي نجران المقرن الغربي ومن بضيافتهم من المجاهدين قاموا بهجوم مظفر على مؤخرة الجيش الفرنسي فقتلوا عدداً من ضباطه وجنوده واستولوا على جميع أسلحتهم وصناديق الذخيرة والدواب وعطلوا عربات النقل وأحرقوا بعض السيارات وعادوا لقراهم سالمين.

تحمس جمهور الحاضرين وتعالى الهتافات بحياة الثورة خاصة بعدما تتابع وصول الغنائم والمعدات مع الثوار إلى القرية. فأيقن القائد أن ساعة النصر قد أوفت بعون الله وهداية من لدنه. وأسرع بإرسال المفازيع والرسل إلى السويداء وقنوات وكافة القرى ومعهم الغنائم ليذيعوا الخبر السار ويستنفروا المقاتلين من جديد ضارين موعداً للجميع على المزرعة في الحال....

وقد وصلت بعد ذلك تفاصيل عن ذلك الهجوم المظفر على مؤخرة الجيش الفرنسي الذي كان مفتاح النصر والعامل الأساسي في اندحار حملة ميشو وإبادتها.

- بدأ الهجوم من أبطالنا الثوار المرابطين في قرية نجران وحول نبع قراصة الذين انقضوا بعد الظهيرة على جناح الجيش من الجهة الشمالية وقد كان مؤلفاً من لواء من المشاة وعدد كبير من السيارات والدواب تحمل الذخيرة والمؤن تحرس جميع الرشاشات والسيارات المصفحة وتحوم فوقه الطائرات الحربية، ويروى أن زوجة المجاهد عباس أبو عاصي في نجران قد حرضت المجاهدين على الهجوم عندما رفضت أن يقدم أي ثائر على الزاد الذي أعدته لهم إلا إذا وعد بالعودة إلى ساحة القتال، وذلك حسب ما ورد في كتاب الأستاذ سلامة عبيد (الثورة السورية على ضوء وثائق لم تنشر). وهكذا فقد كان الانقضاض صاعقاً عنيفاً استسلمت على أثره الفرقة الفرنسية استسلاماً تاماً وأسر ضباطها ومن بقي حياً من جنودها ثم أحرق المجاهدون ثلاث مصفحات مع ذخيرتها وكسبوا الأرزاق والدواب والبنادق

والرشاشات والذخيرة وانطلقوا إلى قراهم عند الغروب وهم يملأون الفضاء حداءً
ورصاصاً مرددين أهازيج النصر بحماس وافتخار: أهزوجة المجاهد نايف عجاج نصر:

يا فرنسا والله ما نطيع وانهموش عند ديارنا

لعين زغردة البنات ذبح العساكر كارنا

هـ- المعركة الحاسمة: ٢ آب ١٩٢٥

سرت أنباء النصر والغنائم في كافة أنحاء الجبل سريان النار في الهشيم
فتحمس الثوار من جديد وزحفوا من كل حذب وصوب نحو المزرعة مسلحين بالمناجل
والفؤوس والعصي والسيوف وبعض البنادق والمسدسات. وراحوا يحيطون بالحملة من
كل الجهات في ظلمة الليل الساتر حتى كان البعيد يسبق القريب للقضاء على
الحملة الأجنبية بالرغم من دباباتها ومصفحاتها ورشاشاتها وأسلحتها.

وبعد أن علم الجنرال ميشو بما حل بالمؤخرة من الجنود الفارين باتجاه المزرعة
أصدر أوامره لتشديد الحراسة وإنارة سماء المزرعة بالأسهم النارية خوفاً من هجوم
مفاجئ. وقد استفاد الثوار من الإنارة في تركيز مواقعهم وراحوا يزحفون على
بطونهم لسد الثغرات وإحكام الطوق جيداً حول المعسكر. وهنا نترك للقائد الذي
جاء إلى قلب الهجوم ليصف لنا هذه المعركة العظيمة الفاصلة حيث يروي
بمذكراته ما يلي:

(تحركنا من سليم عند بزوغ الفجر يوم الاثنين ٣ آب سنة ١٩٢٥ وحين وصولنا
إلى المزرعة وجدنا الحملة الفرنسية في حالة تأهب واستعداد لتستأنف زحفها نحو
مدينة السويداء، وفي نفس الوقت رأينا بيرق السويداء بمواجهة مع أرتال الحملة
المستنفرة في سهل المزرعة، وعلى الطريق العام من الجهة الجنوبية الشرقية لمكان
انتشارها، وكانت بعض الآليات المدرعة تناوش المتقدمين من مشاتنا بنيрана القوية
عند مسيل الفارعة، ثم أخذت بيارق القرى تصل تباعاً وتتوزع في جبهة طويلة منحنية
حول المزرعة، تمتد من قرية السجن غرباً حتى الفارعة شرقاً، ووادي ولغا في الجنوب
حيث كانت بعض فصائل خيلنا متجمعة.....)

قبل طلوع الشمس بدأ بيرق السويداء هجمته الصاعقة الأولى، فاخترق خطوط العدو من جهة القلعة القديمة والتحم مع مشاته وبعض مصفحاته التحاماً مريعاً، ثم أخذت البيارق الأخرى تضع ثقلها تباعاً في ميدان المعركة وتوسع الثغرة لتنازل الجنود في خنادقهم ومرابض رشاشاتهم بال سلاح الأبيض في أكثر الحالات. كانت الآليات المدرعة تجول وتتصلو أمام الخنادق والاستحكامات التي حفرها العدو حال وصوله إلى المزرعة في الليلة الفائتة وتمطرنا بقذائفها ورصاص رشاشاتها بصورة متواصلة، كما ازداد نشاط المدفعية التي كانت تقذفنا بحممها من مرابضها الواقعة خلف خطوط العدو. وكذلك الطائرات التسع التي بدأت تحوم فوق مواقع الثوار وتقصف مراكز تجمعهم منذ انبثاق الفجر، ثم اقتصر نشاطها بعد الالتحام الشامل مع جنود الحملة على التحويم المنخفض ولكنها كانت تستأنف القصف بسرعة فائقة كلما شاهدت مجموعة من الثوار قادمة إلى ميدان المعركة.

- كنت أسمع وأنا بمكاني أراقب سير المعركة أصوات النخوات الهادرة تتطلق من حناجر المجاهدين تقول:

وين راحو النشاما..... عليهم، اليوم ولا كل يوم، ومنهم من كان يردد هذه الأهزوجة:

يا أم الوحيد وابكي عليه والموت ما يرحم حدا

لا بد ما تنعي عليه إن كان اليوم ولا غدا

أو:

لا طال عمرك يا الذليل لا بد ما تلقى الردى

أو يقول بلحن عاصف

تايه الشوريائي تحاريننا من حاريننا يذوق الهوال

كان الشبان يترصون بالمدرعات ويكمنون لها أثناء تراجعها حتى إذا اقتربوا منها قلبوها بأكتافهم وقتلوا سدنيتها بخناجرهم ومسدساتهم وأحرقوها. يضيف الباشا بمذكراته:

وعند الضحى أوعزت إلى فريق كبير من فرساننا لتنفيذ الهجوم فانقضوا على جناح العدو الأيمن وفتكوا بجنوده فتكاً ذريعاً، وقد لعب بيرق الثلعة دوراً عظيماً في تلك الغارة الموفقة. وهنا لاحت لحظة الهجوم على قلب العدو ومراكز دفاعه الرئيسية فاندفعت قواتنا الضاربة من جديد إلى ميدان المعركة يساندها في الميمنة مشاة البيارق وفي الميسرة فرسانها، فتصدعت بهجمات الكاسحة جبهة العدو وتمزقت صفوفه وانشلت حركته ودبت الفوضى في مختلف مواقعه، وبذلك فقدت قيادته كل أمل بأخذ المبادرة من أيدينا في تسيير دفعة المعركة، كما عجزت عن تنفيذ أية خطة للتراجع المنتظم ومع ذلك فقد أبدى جنود الحملة الفرنسية بطولة خارقة في مواجهة الثوار والثبات في خنادقهم حتى نازلهم فرساننا بالسلاح الأبيض، وقد أبدوا مهارة بالفروسية وأساليب الكر والفر تدعو للدهشة والإعجاب، لكنهم وجدوا أمامهم أبطالاً من فرساننا لا يشق لهم غبار، وقد برهن فرسان بني معروف وأبطالهم للفرنسيين والعالم أجمع أنه ما زال في عرب القرن العشرين من يجيد استعمال السيف كما استعمله الأجداد في معارك ذي قار وحطين واليرموك).....

هكذا اندحرت الحملة الفرنسية بل اندثرت وتبعثرت جثث قتلاها وهياكل مدرعاتها وآلياتها المختلفة وأسلحتها الثقيلة على السهول الممتدة من المزرعة شرقاً حتى قرية الدور وبصر الحرير غرباً وقد وصلت فلولها الهاربة تجر أشلاءها في محطة أزرع منهكة ضائعة خائرة القوى، وقد وصفهم بعض المسافرين في المحطة وهم يلقون بأنفسهم على القطار الذاهب إلى دمشق بقوله: كانوا يتمسكون بالمركبات تمسك الغريق بنواتي الصخور، وكانت الضمادات على جراهم واللفائف على رؤوسهم توهم المرء بأنهم أهل مشفى كبير فروا منه لحريق أصابه.....

وقد ترك لنا المجاهد هلال عز الدين النادرة التالية التي أوردها الأستاذ سلامة عبيد في كتابه ص ١٣٦.

أ- اقترب هاني الحلبي من إحدى المصفحات ويده سيف، وكان السائق يطل رأسه من كوة المصفحة ليكشف الطريق لنفسه، فعاجله هاني المذكور بضربة أطارت رأس الجندي ويده، فالتفت ابن أخيه عبد الكريم وقال ضاحكاً:

(هيك يا عم عورت الزلمي) وممن برز وفاق الأقران في هذه المعركة المرحوم الشهيد سليمان العقباني فقد كان حوله ثمانية عشر جندياً مجندين بضربة سيفه وشقهم من الكتف حتى الخاصرة المقابلة^(١).

ب - أما الشيخ حسين العقباني من السجن فيقول: هل شاهدت أجساداً تركض بدون رؤوس كان الجنود الهاربون من المعركة يركضون غرباً خلف بعضهم أرتالاً أرتالاً، وعندما يقابل فارس من الثوار يقطع بسيفه البتار وعزمه القوي رؤوس الجنود الراكضين بالتتالي فتدحرج الرؤوس على الأرض بينما تستمر الأجساد راكضة عدة أمتار من عزم الاندفاع بدون رؤوس، منظر مذهل قال فيه الشاعر:

عالمزرعة رزم المدافع والقواس	خرس البرود تقول سوق الحداد
لما لكد فرساننا على المتراس	عطل الرمي وازدان سوق الطراد
شلفات ترعف دم تغرق بالحواس	بواتر تبيري رقاب تشفي المراد
أجساد تركض هاربة بلا رأس	وروس تدحل عالارض غير هاد
منظر يطير العقل ويشيب الراس	ويعزز بالعرككات دور الهناد
يا الله نحننا دوم للوطن حراس	يا رب تنصر الأحرار ضد الأعاد

المؤلف

(١) الشهبندر ص ٢٩.

هـ- نتائج معركة المزرعة

١- لقد اختلفت الروايات وتناقضت الأقاويل عن خسائر الحملة وعدد الجنود الذين قتلوا في المعركة كما تناقضت في عدد أفرادها وعوامل هزيمتها وأسباب اندحارها، ويذكر سلطان الأطرش بمذكراته أن عدد الذين استشهدوا من ثوارنا حوالي ٣٤٠ شهيداً عدا الجرحى والمصابين بعاهات دائمة سجلوا على صفحات تاريخ أمتنا العربية أروع صفحات الجهاد والنضال^(١).

٢- بالنسبة للفرنسيين فقد اتخذت التسجيلات عن هذه المعركة طابع الإيجاز حيث ورد في كتاب (المدفعية في المستعمرات ص ٢٩٠) ما يلي:

❖ - "لقد نشبت بين الجيش والدروز معركة دموية خاسرة، سحق على أثرها هذا الجيش سحقاً". ولم يرد في الكتاب الذهبي لجيوش الشرق، سرد لسحق جيش الجنرال ميشو. إلا أنه ورد في الصفحة ٢٧٥ من الكتاب وفي خاتمته أنه سقط من رجال جيش الشرق الفرنسي في ساحات القتال التي خاض غمارها في فلسطين وسوريا والشرق ٢٧١ ضابطاً وتسعة آلاف جندي. طبعاً هذا الرقم غير صحيح لأن خسائر الجيش الفرنسي في معارك ٢-٢ آب فقط تزيد على ثمانية آلاف سقطوا وظلت جثثهم شهوراً مكدسة على أرض المعركة^(٢).

❖ - يضيف منير الرئيس في كتابه ص ١٧٨ أن صحفيين ألمانيين كانوا ضابطين في الجيش الألماني زارا ساحة المعركة بإذن من قيادة الثورة بعد المعركة بقليل، فصرحا بعد عودتهما قائلين:

إن ظفر بني معروف ومصرع الآلاف من الجيش الفرنسي بالأسلحة البدائية التي كان يحملها الثوار أمر لا مثيل له في الثورات التي نشبت في مختلف أنحاء العالم ضد الجيوش النظامية، والأمر الذي لا يكاد يصدق العقل البشري أن يستطيع بنو معروف بالبنادق العتيقة والسيوف والمناجل أن يستولوا على المدرعات المجهزة بالمدافع

(١) مذكرات ح ٨.

(٢) الرئيس ص ١٧٨.

والرشاشات ويحطموها ويحرقوها لتقف في ساحة المعركة شاهدة على بطولات ومآثر لم يعرف تاريخ الثورات مثيلاً لها من قبل...

✽ - يقول الأستاذ سلامة عبيد في كتابه (الثورة السورية على ضوء وثائق لم تنشر ص ١٣٧).

إن انتصار المزرعة كان أبرز انتصار حربي في تاريخ سورية الحديث، إذ لا تجد فيه يوماً أدعى للاعتزاز والخلود من يوم المزرعة ولا تجد نكبة حربية تقض مضاجع الاستعمار قبل تلك النكبة^(١).

كانت المزرعة إذن العامل الرئيسي لإثارة الهمم كلما فترت لا في الثورة فحسب بل في تاريخ سوريا الحديث على امتداده، لذلك نجد أهم أهazيج الشباب في العراضات والمظاهرات:

عالمزرعة ويا شباب منهوي منكم نساها - وفرنسا صارت خراب بسيوفنا حطمانها
وقد كانت هذه المعركة أيضاً المورد الرئيس لتسليح الثوار بالأسلحة النارية الخفيفة وبعض المدافع الجبلية التي استعملها الثوار فيما بعد، ومن النتائج الهامة الأخرى امتداد روح الثورة إلى كافة المناطق السورية وإلى لبنان وفلسطين والأردن وانتقال زعماء الحركات الوطنية من دمشق ومن لبنان والأردن للمساهمة الفعالة في الثورة.

ز- قصائد وأشعار معركة المزرعة والمعارك الأخرى

وراح الشعراء والكتاب والصحفيين يشيدون ببطولات المجاهدين وتضحياتهم وشجاعتهم. فهذا الشاعر خير الدين الزركلي في قصيدة القيت باحتفال لنصرة الثوار في القاهرة يقول:

الأهل أهلي والديار دياري وشعار وادي النيربين شعاري
إن كان في ذي قار من شرف لنا فنحن هذا اليوم في ذي قاري

(١) عبيد ص ١٣٧.

وهذا أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدته المشهورة:

سلام من صبا بردى أرق	ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوا في	جلال الرزء عن وصف يدق
لحاهما الله أنباء توالى	على سمع الولى بما يشق
يفصلها إلى الدنيا يريد	ويجملها إلى الأفاق برق
دم الثوار تعرفه فرنسا	وتعلم أنه نور وحق
وللحرية الحمراء باب	بكل يد مضرجة يدق
وما كان الدروز قبيل شر	وإن أخذوا بما لا يستحقوا
ولكن ذادة وقرة ضيف	كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف	موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوءة ولكل شبل	نضال دون غايته ورشق

وهذا الشاعر معروف الرصافي في قصيدة طويلة نقتطف منها ما يلي:

لله در بني معروف إذ صبروا	على التجالد ما كلوا وما سئموا
ولأزموا الفقر عاشوا في مجاهله	عيش القناعة لا حلو ولا دسم
بذاك حبهم الاوطان يأمرهم	إذ هم سما حب الموطن اتسموا
باتت دمشق لهم ترنو نواظرها	كما رنا للطبيب المدنف السقم
أيام لم يبق من بيت بغوطتها	إلا ذكت فيه نار أو أريق دم

فاستقتلوا في سبيل الذود عن وطن
صينت له من قديم عندهم ذمم
كانوا أشد مضاء من صوارمهم
فليس يثنى بهم ثنان إذا هجموا

وهذا الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات:

فمن غطارفة في جلق نجب
ومن غطارفة في أرض حوران
عافوا المذلة في الدنيا فعندهم
عز الحياة وعز الموت سيان
لا يصبرون على ضيم يحاوله
باغ من الإنس أو طاغ من الجان

أما شعراء المهجر فكانوا أكثر تأثراً من غيرهم لدماء الثوار وتراب الوطن، وعندما جئنا كوفد من طلاب الجامعة من أبناء الجبل إلى الشاعر رشيد سليم الخوري في الفندق في دمشق في الخمسينات نشكره على موقفه وشعره الغزير للثورة فأجابنا: أنا الذي يجب أن أشكر أسلافكم لدفاعهم عن تراب الوطن ولأنهم أعطوني المادة الصادقة لتسيل عواطفني شعراً وأدباً. وقد ذكرت له بعض الأبيات من قصيدته التي يقول فيها لقائد الثورة:

وثبت إلى سنام التنك وثباً
جسوراً علم النسر الوقوعاً
فخر الجند فوق التنك صرعى
وخر التنك تحتهم صريعا
فيالك أطرشاً لما دُعينا
لخطب كنت اسمعنا جميعاً

وفي قصيدة أخرى يقول:

فرنسا ليس في حوران لحم
يسر نبيك يا أم الضباع
وهل لاقيت في حوران إلا
مأسد خلتها جهلاً مراعي

رماح كالأفاعي مشرعات وأقلام كأنياب الأفاعي
أطلّني وأشهدني منهم هجوماً تري وثب القلاع على القلاع

وهذه مقتطفات للشاعر المهجري الياس فرحات:

يا سائلي عنهم أتجهلهم وهم الذين على العلى جبلوا
وهم بني معروف همتهم بين الكواكب والورى مثل
البأس يركب كلما ركبوا والحزم ينزل حيثما نزلوا
والعدل يجعل شيخهم حملاً فإذا ظلمت استأسد الحمل
هم ناب سوريا ومخلبها وهي اللبوءة والعدا همُّلُ

بعض القصائد الشعبية للمعركة

إن القصائد الشعبية التي قيلت بعد هذه المعركة كثيرة وكثيرة، وكلها تقريباً من النوع الذي يغنى على الرباب أو غناء خيل (أغاني) أو أهازيج حربية (جوفيات) أو قصائد فن..... وكلها تردد في المهرجانات والحفلات والأعراس، وكان الشاعر صالح عمار من أكثر الشعراء الذين ترددت قصائدهم في الموضوع، علماً بأن قصائد نجم العباس كانت بليغة وغزيرة أيضاً: وهذه نماذج من تلك القصائد:

(صالح عمار في قصيدة: يا الله يا رب القدار)

قصيدة فن

يا الله يا رب القدار يا خالق موج البحار
تخمد نار الأعادي يا ربي تعز الثوار

يا ربي تعز الدروز	عَفرنسا خذون الفـور
مدافع ومتـورة لـوز ^(١)	وأحرقنا الدبابـة بنـار
الدبابـة وأحرقناها	والحمـلة وليناها ^(٢)
والعـسكر خـليناها	مثـل الشـمائل وغمـار ^(٣)
مثـل الشـمائل صـاروا	لـا النـشاما ^(٤) غـاروا
واليتنانـية احتـاروا	مـن ضـرب سـيف البـتار
مـن ضـرب بـني مـعروف	مـا يـنحـاهم دـرب الخـوف
يا وقـعة تلـ الخـروف	تـشبه لـوقـعة ذـي قـار
يا وقـعة تلـ الحـديد	تـسمـع لـمـوزر هـويد ^(٥)
كـسبنا مـتر الـيوز جـديد	فـرنـساوي شـغل الشـطـار
وأخـتم قـصـيدـي الغـالي	بـحمـد الـرب العـالي
والـي بـيـصـير لـتـالي	بـيـكـسب مـن قـصـيد عـمار

(١) متر اللوز: سلاح يرمي الرصاص رشاً.

(٢) وليناها: استولينا عليها.

(٣) الشمائل وغمار: القتلى فرادي ومجموعات على الأرض.

(٤) النشاما: الأبطال المغامرين.

(٥) هويد: دوي - هدير.

جوفية

قامت ابتدي بالخطاب	عالحرب قايف بناها	قامت ابتدي بالخطاب
بين حقوق الحراب ^(١)	واللي علينا أداها	بين حقوق الحراب
بالكفر من أول باب ^(٢)	والحملة جاها بلاها	بالكفر من أول باب
بارودها والطواب ^(٣)	بالعون علينا هداها	بارودها والطواب
عالمزرعة ويا شباب	منهوي منكم نساها	عالمزرعة ويا شباب
وفرنسا صارت خراب	بسلاحنا حطمنهاها	وفرنسا صارت خراب
اثنا عشر بالحساب	ولا كاتب منهم حكاها	اثنا عشر بالحساب
سوريا أم العروبة	سلطان بسيفو حماها	سوريا أم العروبة
نختمها برب الأرياب	هالمعتلي بسماها	نختمها برب الأرياب
ويفكنا من العذاب ^(٤)	والعدو يقصر مداها	ويفكنا من العذاب

من ديوان صالح عمار: الديوان الشعبي بأسماء الشهداء المطبوع سنة ١٩٦١

^(١) علينا أداها: علينا أن نؤديها.

^(٢) الحملة: الجيش الفرنسي.

^(٣) الطواب: المدافع.

^(٤) يقصر مداها: يضعفه.

جوفية

أرجوزة حماسية سريعة

يا الله ويللي حاجزاً موج البحر	يا معتلي لئنك دعانا تسمع
تجعل سعدنا عالياً فوق البشر	قيدو منا يشبه شبيب التبّع
لصار حنا نجوم وسلطان القمر	خمس طعش ^(١) نيسان ويوم يطلع
غربي السجن عالزرعة وشرقي بصر	الدم الفرنسي بالمواطي منقّع
أهل نجران تفازعوا عند العصر	كسبوا الذخاير والكلل والمدفع
مشروبنا يوم اللقا الدم الحمر	عدونا كأس الصبر يتجرع
يوم اللقا منفخت طبول الوزر	وسيوفتا بروس الأعادي قطع
كم فارس منا على الخصم انحدر	مثل الصواعق مع بروق تشلع
وقلوبنا يوم اللقا مثل الصخر	صويننا رد الوصايا وما وعي
ميشو ^(٢) هرب وترانكا ^(٣) هج وما صبر	تركوا طوابير العساكر قطع

^(١) خمس طعش: خمسة عشر.

^(٢) ميشو: قائد الحملة الفرنسية.

^(٣) ترانكا: قائد فرنسي آخر.

جوفية

أرجوزة حماسية سريعة

يا الله ويا ضابطاً لكلّ بحساب يا رب ويا عالم بسر الخفيّا
جتنا عساكر ما تنضبط بالحساب عالمزرعة نصبوا خيام العليّا
جانا المفزع ينادي الوطن يا أصحاب يا بني معروف ويا أهل الحميّا
شدوا البيارق عالسفر قبل الغياب وتحزمووا بموزر^(١) اليفري المنّيّا
حين الضحى غريوا بقلب ما يهاب حس الموازر مثل نغي القطيّا^(٢)
خاضوا المعارك والبيزر^(٣) سكب السحاب رزم المدافع^(٤) والقنابل دويّا
دمروا التنكات^(٥) والعساكر والطواب^(٦) كسبوا الذخاير واستحقوا التحيّا
عفي النشاما يا وجوه الأسد وذياب صنتوا هالوطن بالدماء والضحيّا
يا باشا وياللي لدم العدا شراب يا بايع الروح بسوق المنّيّا

^(١) الموزر: بندقية الرصاص والجمع موازر.

^(٢) نغي القطيّا: إشارة لصوت تتالي الطلقات.

^(٣) البيزر: الرصاص.

^(٤) رزم المدافع: دوي المدافع.

^(٥) التنكات: الدبابات.

^(٦) الطواب: المدافع.

جوفية

صالح عمار

رعد هدر قامت بورقه تشلعي
يا الله ويا اللي لدعانا تسمعي
حنا الشمس هاللي بحرہ تسطلي
فرنسا بغانا من البحور وفرعي^(١)
الذيب ينده للضبع كدوا معي
ممدوح دمه بالخراب منقعي^(٢)
اللي انيسر^(٣) واللي صويب يضلعي^(٤)
سامي بغانا وللعساكر جمعي^(٥)
لحقوا به اهل العبي المرقعي^(٦)
السيف غير بيدنا ما يشبعي^(٧)
المرجلة^(٨) من راسنا ما تطلعي
تحدّر سحاب من البرق طار السما
تظهر سعدنا عالخصيم العايما
ننّعش الميت اللي بلحدہ نايما
بالمزرعة حامت عليه الحايما
فعل بني معروف أحسن ولايما^(٩)
زار اللحد ولا قامت له قايما
واللي تشّت بالبراري هايمما
خش الوطن نصب خيامه وخيما
جنب الكفر حامت عليه الحايما
وفعالنا تشهد علينا دايمما
جتنا وهب من خالق العوامما

(١) فزعي: أي جرد الجيش

(٢) ولايما: القتلى وليمة جيدة للوحوش.

(٣) ممدوح: إشارة للقائد اتركي ممدوح باشا الذي اندحر جيشه في منطقة خراب عرمان.

(٤) انيسر: راح اسير.

(٥) يضلعي: يعرج.

(٦) سامي: إشارة لحملة سامي باشا الفاروقي سنة ١٩١٠.

(٧) العبي المرقعي: مرقعين العبي الفقراء الذين أجادوا في المعارك.

(٨) يشبع السيف: أي يرتوي من دم الأعداء.

(٩) المرجلة: الحماس للقتال.

الشاعر صالح عمار في قصيدة فن حرية عندما حاول الجيش الفرنسي فك
الحصار عن القلعة.

يا فرنساوي شو جابك ع هالبلاد	ما منجيرها عادي ^(١) ونحط عداد ^(٢)
ما منجيرها عادي بها لبلاد	منحميها بالهنادي وسيف البولاد
من القلعة نيح بالك لا تزهي لك	غير التعب ما ينالك يكفيك عناد
انكنك صرت مكلفها ومسقفها	بساعة وحدي نخسفها وندعيها رماد
بفرد ساعة منحرقتها ومنطريقتها	ورجالك منمزقتها بسيوف حداد
عشيرتنا العربية حرجية	من مصر لسوريا حتى بغداد
بيهون الموت علينا لو انتخينا	والموازر بأيدينا تفري الأكباد ^(٣)
حسبتوها عوامي ^(٤) ولحمة وبامي	قبلك ممدوح وسامي ^(٥) عافون الزاد
وفرعتنا ^(٦) لبنانية مع سورية	فارسهم ينطح مي ولاهم بعاد
للبلاد منحميها ومنفديها	الزواح الغالي نضحيتها بسوق المزاد ^(٧)

^(١) نجيرها عادي: نمشيها عادي.

^(٢) نحط عداد: ندفع ضريبة مواشي.

^(٣) الموازر بنادق الرصاص.

^(٤) عوامي: حلويات مقلية بالزيت.

^(٥) ممدوح - سامي: قادة من الأتراك وخروا في الجبل.

^(٦) فرعتنا: نجدتنا.

^(٧) سوق المزاد: معارك المزاخمة إلى الموت.

الشاعر البدوي (صبيح السراح) من بدو نجران يصف معركتي الكفر والمزرعة:

البارحة ما بت أنا الليل مشطون^(١) يا رب لا تثقل علينا المصايب
يا هيه يا للي للركايب تدنّون^(٢) شدوا عليهم عزمهم واللبايب
مرياعهم تسعين ليلة على الهون يرعوا الصحايح من رياض العشايب
ريضوا أودعكم شرب غليون وسيروا عليهم مثل النعام الثرايب
أخذوا بوصايتي لو نويتو تمدون عليهم أخودوسه دليل الركايب
من دون سلطان الجبل لا تحيدون يا ما ذبح للضيف حيل الغصايب^(٣)
أحييت يا اللي نافل الراي^(٤) وفنون سلطان سائر لاويّات الذوايب^(٥)
غيم تحدر يمنا ماله ركون يضفي على روس العلا والجنايب
يمطر على حوران والكفر من دون يسقي رياض معذيات الطنايب^(٦)
هذول الأرفاض^(٧) اللي لبنا يحكمون جينا وجينا هم على غير طايب
بعين موسى والطوابير حطون قامت تخالط عجهم واللهايب

^(١) مشطون: مريوط بالحبل .

^(٢) تدنّون: يهينون.

^(٣) الغصايب: الجيدة للذبح.

^(٤) ناقل الراي: سديد الراي.

^(٥) لاويّات الذوايب: مصنفات الشعر.

^(٦) الطنايب: أعواد الحبال الصغيرة التي تشد بيت الشعر.

^(٧) الأرفاض: السفلة المرفضون.

بالمزرعة بسوق المنايا يبيعون
رزم المدافع بأيمن وأيسر الكون
البرق يشلح والقصف كان مجنون
شرابة الدم الحمر ما يكنون
قاموا على دهم الطوابير يمشون
عيال مدرز للعساكر يهبّدون
بزر المكر يجعل العظم مسحون
راحت على اللي بالفرنسي يرطنون
أرزاقهم راحت تقطع بميت مليون
كم وليد بملعب الجيش مرهون
يا شور أخو بلشه به النصر مضمون
أخوات نصره بالشدايد يسّدون
هوشوا^(١) عند بلادكم لا تذّلون
سلطان يائلي دوم باسمك يهرجون
وأختم كلامي باسم خالق الكون

موزير هلل مثل رشق السحاب
تقول رعود الصيف بأول هباب
وصواعق ترمي النار كأنه سكايب
زخراتهم والخيل كله كسايب
نار وعلقت بشناق زرع خسايب
والدم ثقرون النشاما خسايب
لا ماجزون الدور والعج قاطب
عساكر وضباط ولوا هرايب
خيول النقل ومدركات الحرايب
والعمر عند الله والي السبايب
لولا به حبس الروم رحنا جلايب
يا مائلهم عادات يوم الحرايب
مرحوم من شكوا عليه النصايب
كأنك قصر برزان عالي المراتب
يا رب تنصر الأحرار ضد الأجانب

^(١) هوشوا: قاتلوا.

جاد الله سلام سنة ١٩٢٥ على أثر معركة المزرعة التي انتهت بنصر ساحق
لصالح الثورة السورية الكبرى:

يا الله نطلبك السّتر	يوماً قتل دولابهـا
شرابة الدم الحمر	والذل ما نرضى بهـا
جرد علينا من البحر	عساكراً وطوابهـا
يوم انتنصب سوق العصر	والسوم عند رقابهـا
عافوا المدافع والزخـر	ومصفحات جابهـا
عساكر مثل البحر	بني معروف ذياهـا
وبلادنا ما هي قفر	بالدم نروي ترابهـا
عادتنا ذبح الوزر	والمرجاة تغوى بهـا
عينيك يا للي ما حضر	حنا كفيننا غياهـا
يا بنت يا عين الصقر	رياح النفل بجياهـا
لا تاخذين الماصـر	يوم الخوي ينخي بهـا
وخـذين خيال النـصر	والمرجاة عيابهـا

ثانية:

من السجن لبصر الحرير	والخيل تاطا بالدمـا
أهل المدافع والنفير	لحشر ظلمات نايـمـا

اللي وقع واللي أسير واللي شرد هزايما

يا ذيب والحق للعشا طيور المنايا حايما

بني معروف باللقا وتجدعت عمايم

سلطان باشا يا شوير عسى سعودك دايم

الفصل الثالث

بعد معركة المزرعة

أ - حصار القلعة في السويداء

بعد معركة المزرعة سارع سلطان الأطرش برسالة مستعجلة إلى دمشق حملها الضابط محمد كيوان، خاطب فيها الدكتور الشهبندر ونسيب البكري وغيرهما من زعماء البلاد والقادة الوطنيين، وذكرهم بالاتصالات السابقة معهم وشرح فيها الأوضاع الراهنة في الجبل كي يتخذوا التدابير اللازمة للمشاركة بالثورة الوطنية والنزول إلى ميدان الجهاد المقدس في أسرع وقت ممكن، وقد وقعها مع سلطان باشا الأطرش محمد عز الدين الحلبي وجاد الله الأطرش (مذكرات ح ٨) وكان الثوار قد شددوا الحصار على القلعة بالسويداء واستخدموا المدافع الخمسة التي أصلحها العقيد فؤاد سليم بمساعدة المدفعيين من السوريين بعد أن غنموها بمعركة المزرعة، استخدموها لترمي بقذائفها من الجهات المختلفة على القلعة فتشعل فيها الحرائق وتفجر الذخيرة وتفتح في الجدران الثغرات الكبيرة والصغيرة، وقد تدارك الثوار نقص الذخيرة لهذه المدافع بجمع البارود والحشوات من قنابل الطائرات والمدفعية التي لم تنفجر في السويداء والقرى والسهوب التي سقطت عليها.....

يذكر منير الرئيس: في كتابه ص ٢٢٩، لقد عجزت الطائرات الفرنسية عن كشف مكان المدافع التي أحسن العقيد فؤاد سليم إخفاءها وتبديل أماكنها وكان أشدها تأثيراً على المحاصرين المدفع الكبير، فقد استطاع المدفعيون العرب بعد أيام من القصف أن يخرسوا مدفع القلعة وأن يحطموه ويقتلوا عدداً من الجنود، كما أن قذيفة من قذائفه اخترقت النافذة إلى مهجع في القلعة يلجأ إليه المحاصرون مزدحم بهم، فقتلت عدداً كبيراً منهم ما عدا الجرحى، فرفع المحاصرون الأعلام السوداء ونكسوا علمهم الكبير الذي كان يرفرف على القلعة لإظهار حزنهم.

ومن أساليب الدروز في تشديد الحصار على حامية القلعة، أن بعض المسلحين منهم كانوا يسيرون مع الفجر إلى المنخفضات القريبة من القلعة والتعاريج الأرضية التي لا يكشفها المحاصرون ويتحصنون فيها بانتظار النهار حتى إذا أقبلت الطائرات الفرنسية لتمون القلعة وأخذت تحوم وتهبط لتلقي حمولتها، بادرها بنيران بنادقهم وهم الرماة المهرة ليصيبوا الطيار والمحرك، فتسقط الطائرة وتحترق أو تنفجر أمام أعينهم أو تفر تحمل طيارها الجريح، والطائرة البعيدة عن القلعة أو المرتفعة تلقي بحمولتها من مسافات بعيدة لتسقط الطرود والأكياس المملوءة بالمؤن والذخائر بعيداً بين أيدي الشوار ليستفيدوا منها، وكانت هذه الصورة تتكرر كل يوم لأن الطائرات الفرنسية كانت تأتي مضطرة لتموين المحاصرين يومياً (الرئيس ص ٢٣) ومن المؤسف أن أزمة المحاصرين من قذائف المدفعية لم تدم طويلاً فقد انفجرت سبطانة مدفع الشوار الكبير ونفذت الذخيرة للمدافع الأخرى وبقيت بنادق الشوار السلاح الأساسي لمعاركهم.

مفاوضات الصلح

جاء في مذكرات الحلقة التاسعة ما يلي:

قبل أن تجف دماء الآلاف من الجنود الفرنسيين وبعد معركة المزرعة مباشرة أسرع فرنسا لطلب الهدنة ووقف القتال تمهيداً للمصالحة مع الجبل قبل اتصال الشوار بدمشق ولبنان والمحافظات الأخرى وخوفاً من الاستجابة للثورة العامة التي تهدد وجود الفرنسيين في المشرق.

في ٨ آب سنة ١٩٢٥: وصل إلى الجبل الوفد الفرنسي للمفاوضات مؤلفاً من ثلاثة أشخاص:

- الكاتبين رينو: رئيس الوفد المعروف بمعارضته لسياسة كاربييه ومواقفه المعتدلة بالنسبة لمطالب الشعب في الجبل.

- يوسف الشدياق: ترجمان رينو المعروف بميوله الوطنية تجاه بني قومه.

– عبد الله النجار: مدير المعارف بدولة الجبل، ويشيد سلطان الأطرش بأنفته وعزة نفسه وخدمته الخالصة لأبناء عشيرته في الجبل واندفاعه الشديد لخدمة القضية الوطنية. في قرية الثعلة وفي اجتماع لأعيان الثورة طلب عبد الله النجار من قيادة الثورة تقديم شروطها للصالح التي قدمت ما يلي:

- ١- تبدأ المفاوضات مع أعضاء الوفد المشار إليهم مع إضافة الأمير فؤاد أرسلان.
 - ٢- أقصى مدة للمفاوضات ثلاثة أيام.
 - ٣- إطلاق سراح المنفيين والمعتقلين من شبان الجبل لمقابل تسليم أسرى الفرنسيين.
 - ٤- توقف ضرب المدفعية وغارات الطائرات على قرى الجبل فوراً.
- وقد رفض الجنرال ساراي هذه الشروط خاصة مشاركة الأمير فؤاد أرسلان وإطلاق سراح الزعماء المنفيين .
- في ١٢ آب سنة ١٩٢٥ جرى اجتماع مع المندوبين الثلاثة في قرية عرى، ثم آخر في قرية المجيمر، فتقرر:

- إعلان الهدنة وكان من الشروط:

- أ- السماح بدفن قتلى الجيش الفرنسي بالمرعة.
 - ب – مبادلة الزعماء المنفيين والشباب المسجونين بأسرى فرنسيين فوراً.
- في ١٥ آب سنة ١٩٢٥. اجتماع المجيمر الثاني: تقرر فيه تشكيل وفد الثورة لدراسة الشروط التي تقدم بها الكابتين رينو باسم الجنرال ساراي من السادة: محمد عز الدين الحلبي – هایل عامر – سليمان عبيدي الأطرش – فضل الله هنيدي.

وكانت شروط ساراي:

- ١- إعادة الأسلحة التي استولى عليها الثوار أثناء المعارك الحربية.
- ٢- القبول بعودة الحامية الفرنسية إلى سابق مراكزها في الجبل.
- ٣- التعويض لتجار السويداء لما نهب من دكاكينهم.

٤- دفع غرامة حربية قدرها خمسة آلاف ليرة ذهبية عثمانية كتعويض عن هدر كرامة فرنسا.

وقد رفض سلطان الأطرش اللقاء مع الكابتين واكتفى بالاطلاع على سير المفاوضات من أعضاء الوفد.

وبعد الدراسة اعترض الوفد العربي على الشروط الفرنسية وتقدم بالشروط التالية:

١- إصدار عفو عام مصدق عليه من رئاسة الجمهورية الفرنسية وعدم التحقيق بحوادث الثورة.

٢- عدم إدخال قوات عسكرية إلى الجبل لتتمركز فيه.

٣- عدم تدخل المستشار الفرنسي بشؤون الحكم على أن يكون هذا المستشار الكابتين رينو نفسه.

٤- تشكيل حكومة وطنية جديدة للجبل.

٥- ينتخب الشعب حاكماً وطنياً ومجلس أعيان بإشراف لجنة خاصة منتخبة.

٦- لا تحول الحكومة الفرنسية دون رغبة أبناء الجبل إذا شاؤوا فيما بعد الدخول في الوحدة السورية.

٧- عدم نزع السلاح من أيدي الثوار.

٨- إلغاء وظائف المستشارين في الأقضية ووظائف أجهزة الاستخبارات الفرنسية السابقة (م.ج ٩).

يقول سلطان باشا الأطرش بمذكراته عن هذه المفاوضات:

بالرغم من موافقة العديد من وجهاء الجبل على تلك الشروط ورغبة عمي نسيب وعبد الغفار في حقن الدماء وتوطيد السلم ومثلهم أيضاً فريق من زعماء إخواننا في لبنان الذين بعثوا إلينا بوفد للغاية نفسها مؤلف من المشايخ:

رشيد أمين طليع - فايز وفريد العماد - قاسم أبو شقرا - وهبة طليع - محمد عبد الصمد وغيرهم لقد سألني صحفيان ألمانيان عن رأيي في قصة المفاوضات الدائرة

من أجل عقد الصلح مع الفرنسيين فقلت: إن الفرنسيين لا يسعون جدياً إلى الصلح أو السلم إنهم يريدون إلهائنا ريثما تصل قواتهم العسكرية الجديدة التي بعثوا يستقدمونها من فرنسا ومن مستعمراتهم القريبة. ورفضت إعادة الأسلحة التي غنمناها بالمعارك ما دمنا على قيد الحياة. وقلت إنني لا أرضى إلا باستقلال سوريا ووحدتها الكاملة، وإقامة حكم وطني دستوري فيها.

جـ- تجريدة الثورة لتحرير دمشق ومعركة العادلية

من ١٥- إلى ١٧ آب وصل الجبل عدد من الوفود التي لم تؤيد الصلح وشجعت الثوار على المضي في الطريق الثوري الصحيح (م ج ٩) جاء وبنفس المرجع ما يلي:

- ١- وصل إلى المجمعير الشيخ محمد الأشمر يحمل كتاباً من بدر الدين الحسيني يدعو فيه للثورة بالتوفيق وبيارك الخطوات الجريئة التي خطتها في سبيل التحرر.
- ٢- وصل إلى قرية الثعلة في ١٦ آب حديثه الخريشا على رأس قوة حوالي ١٠٠ فارس من بني صخر لمساعدة الثوار في الجبل.

وقد جاء بتشجيع السيد رضا الركابي رئيس الحكومة الأردنية.

- ٣- جاء إلى معسكر المزرعة إسماعيل الترك من حوران (الحريري) مع بضعة عشر فارساً معلناً استعدادهم للانضمام للثورة.

- ٤- في ١٧ آب سنة ١٩٢٥ وصل وفد الحركة الوطنية من دمشق: من السادة:

أسعد البكري - توفيق الحلبي - زكي الدروبي، وأعلنوا تأييدهم للثورة واستعداد المواطنين بدمشق للمشاركة الفعالة مع الثوار، وقد تم الاتفاق مع قادة الثورة بالجبل على إرسال حملة كبيرة من الجبل تلتنقي مع حملة دمشقية مماثلة في جهات العادلية والكسوة لتشكلاً جيشاً وطنياً يدخل العاصمة ليستولي على مراكز القوات الفرنسية فيها وتجريدها، وقد اختير موعد قريب لذلك ٢٤ آب سنة ١٩٢٥ لكي لا تتاح الفرصة للفرنسيين لتجهيز القوات والجيوش للمقاومة.

أسندت قيادة حملة الجبل للسيد جاد الله الأطرش وكان الإقبال على التطوع فيها منقطع النظير حتى بلغ العدد حوالي سبعة آلاف من الهجانة والمشاة وثلاثمائة من الفرسان فيهم عدد كبير من الجبل مثل: حمزة درويش - جادو عزام - مؤيد مشرف -

سلمان القلعاني - معذى المغوش - زيد عامر - جبرشلغين - زيد الأطرش، كما انضم إليها نحو ثمانين فارساً من بني صخر قادمين من الأردن يقودهم عرقوب الخريشا ومثقال الفايز، وفريق من قبائل المساعيد والحسن بقيادة عودة السرور ومطر العدواني، وما كادت الحملة تقترب من الكسوة والعادلية حتى وجدت نفسها أمام قوات فرنسية كبيرة تسد عليها الطريق إلى دمشق، وإنها صبت عليها قذائف المدفعية والطائرات ورشاشاتها على ارتفاعات منخفضة، وقد صمدت في البداية وكبدت الفرسان السباهيين أكثر من أربعين إصابة، لكنها اضطرت أخيراً للتراجع أمام الضغط العسكري بنيرانه الكثيفة بعد أن سقط منها في ميدان المعركة نحو خمسين شهيداً منهم:

جادوا عزام (عريقة) - محمد فايز سلام - سعيد فارس (طربا) - خزاعي عجاج سلام (كسيب) - سعيد معذى المغوش (خلخلة)، وعدد من الجرحى منهم الشيخ مطر العدواني من قبيلة الحسن. وقد كانت معركة العادلية صدمة مفاجئة للشوار حققت نصراً جزئياً للفرنسيين، ومن أسباب الفشل عدم تمكن ثوار دمشق من المساهمة في هذه المعركة بسبب قرب المدة واعتقال الفرنسيين وملاحقتهم لعدد من القيادات الوطنية، وفي حالة التفكك والانقسام التي كانوا يعانون منها في حياتهم السياسية.

وقد جاء في أنباء الفرنسيين (كتاب جيوش الشرق) عن تجريدة العادلية ما يلي:

يوم ١٧ آب بينما كان الجنرال سوله خارجاً بسيارته وبرفقتة الكابتين (دو كوتيل) لتفتيش الجنود فاجأته عند قرية المرجانية كوكبة من فرسان الدروز بإطلاق النيران الغزيرة من بنادقهم ففرت السيارة لكنها فوجئت بكوكبة ثانية قرب الكسوة وأطلقت عليهم النيران فأصيب الجنرال سوله في فخذه وجرح الكابتين دو كوتيل في كتفه ونجت السيارة من الدروز. وجاء في أخبار الفرنسيين أيضاً: أن الدروز من المقرن الشمالي نسفوا جسر الدير علي قرب الكسوة ورابطوا عنده، قوة فرنسية كبيرة توجهت من دمشق فاشتبكوا معها خيلاً وسلاحاً وعتاداً.

٤- مؤتمر ريمة اللحف ومقرراته في مطلع أيلول ١٩٢٥

تشكيل القيادة

بدأ قادة الحركة الوطنية وضباط الجيش الفيصلي يصلون إلى الجبل بعد معركة العادلية مباشرةً إلى المقرن الشمالي عن طريق المريج والغوطة أو إلى المقرن الجنوبي عن طريق الأردن، ويذكر سلطان باشا الأطرش بمذكراته أنه يذكر منهم: الدكتور عبد الرحمن الشهبندر - شكري القوتلي - نسيب وبشير البكري - نزيه وسعد الدين المؤيد العظم - سعيد العاص - فوزي القاوقجي - سعيد الترماني - زكي الدروبي - منير الريس - جميل العلواني وغيرهم كثيرون سنذكر أسماءهم في جدول خاص، بالإضافة للقادمين من إقليم البلان ومن لبنان مثل السادة الأمير عادل أرسلان - رشيد طليع - شكيب وهاب - خطار أبو هرموش.

- مطلع أيلول سنة ١٩٢٥ مؤتمر ريمة اللحف

حضره عدد كبير من أعيان الجبل وقادة الرأي فيه مع الممثلين للحركة الوطنية بدمشق ومن يصحبهم وجمهور غفير من المواطنين، يقول سلطان الأطرش بمذكراته:

تجلت في هذا المؤتمر الوحدة الوطنية بأوضح معانيها، وانصرفت الجهود خلال جلساته لوضع قواعد هامة للتعاون بين جميع العناصر الوطنية في سوريا ولبنان لتقوية دعائم الثورة وتوسيع نطاقها وإيجاد الوسائل لتمويلها وتأمين السلاح لها، كما رسمت الخطوط الرئيسية لنظام جهازها القيادي وإدارتها السياسية والعسكرية، وأنهى المؤتمر أعماله بإعلان القرارات التالية:

١- متابعة الثورة حتى تنال البلاد استقلالها التام.

٢- تسمية سلطان الأطرش قائداً عاماً للثورة.

٣- تولية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر إدارة الشؤون السياسية للثورة وتسميته ناطقاً رسمياً لها (المدير السياسي الناطق الرسمي).

٤- تشكيل أركان قيادة الثورة من السادة: حمد عامر - فضل الله هنيدي - محمد عز الدين - عقلى القطامي - سليمان نصّار - حسين مرشد - يوسف العيسى - علي عبيد - قاسم أبو خير - علي الملحم.

٥- الدعوة إلى حمل السلاح والانضمام إلى جيش الثورة في بيان عام تذييعه قيادة الثورة على الشعب السوري.

وقد بوشر بالعمل فوراً على إذاعة البيان وإرسال نسخ منه لبعض الصحف العربية.

(البيان على الصفحة التالية تتلوه البيانات الأخرى)

وبعد مؤتمر ريمة اللحف بدأت قيادة الثورة ترسل قوات استطلاعية لجمع المعلومات عن الحشود الفرنسية في حوران وقد وصلت أثناء ذلك بعض النجادات من لبنان وفي مقدمتها الأمير عادل أرسلان ورشيد طليع والعقيد فؤاد سليم، وقد انضم الثلاثة إلى هيئة أركان القيادة العليا للثورة للاستفادة من خبراتهم ومؤهلاتهم العالية.

هـ- البيانات الأولى للثورة (١-٢-٣)

- إلى السلاح إلى السلاح

" يا أحفاد العرب الأمجاد! هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم، هذا يوم انتباه الأمم والشعوب فلننهض من رقادنا، ولنبدد ظلام التحكم الأجنبي عن سماء بلادنا، لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد أن سكّ القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب!!

" أيّها السوريون! لقد أثبتت التجارب أن الحق يؤخذ ولا يعطي فلنأخذ حقنا بحد السيوف ولنطلب الموت توهب لنا الحياة.

أيّها العرب السوريون!

"تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي، تذكروا أن يد الله مع الجماعة وأن إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمم المتحدة الناهضة لن تنالها يد البغي،

لقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد وقسمونا إلى شعوب وطوائف ودويلات وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا وأقاليمنا.

إلى السلاح أيها الوطنيون إلى السلاح تحقيقاً لأمانى البلاد المقدسة، إلى السلاح تأييداً لسيادة الشعب وحرية الأمة، إلى السلاح بعد ما سلب الأجنبي حقوقكم واستعبد بلادكم ونقض عهودكم ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية وتتأسى الأمانى القومية.

نحن نبرأ إلى الله من مسؤولية سفك الدماء ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة، يا ويح الظلم، لقد وصلنا من الظلم إلى أن نهان في عقمر دارنا فنطلب استبدال حاكم أجنبي محروم من المزايا الإنسانية بآخر من بني جلدته الغاصبين فلا يجاب طلبنا، بل يطرد وفدنا كما تطرد النعاج.

إلى السلاح أيها الوطنيون ولنغسل إهانة الأمة بدم النجدة والبطولة، إن حريتنا اليوم حرب مقدسة ومطالبنا هي:

✽- وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالاً تاماً.

✽- قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون أساسي على مبدأ سيادة الأمة سيادة مطلقة.

✽- سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش محلي لصيانة الأمن.

✽- تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان في الحرية والمساواة والإخاء.

إلى السلاح ولنكتب مطالبنا المشروعة هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها أجدادنا من قبلنا. إلى السلاح والله معنا والإنسانية ولتحيا سورية حرة مستقلة.

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

ملاحظة:

يشير هنا أبي راشد إلى أن البيان وُزِعَ على الصحف القاهرية باسم سلطان الأتشرش في الثالث والعشرين من شهر آب سنة ١٩٢٥ ومن بين الصحف الأوروبية كافة لم تنشره إلا صحيفة (لومانيته) الشيوعية في ٩ أيلول سنة ١٩٢٥ نقلاً عن الصحف المصرية.

البيان الثاني:

منشور عام إلى إخواننا السوريين (ص ١٨٨ من كتاب فلاديمير لوتسكي) باسم الوطن السوري المقدس، وباسم استقلاله المبارك أحييكم وأحيي فيكم العروبة الصادقة، والأنفة القومية، واستصرخ منكم أمة عربية مشت على مناكب الدهر محمية الذمار، ما حملت عاراً ولا كان بحماها شنار، واستنفركم لحرمة الجهاد الوطني يا خير من حمى الوطن وكنتم عنه ذادة أبطالاً، ونفرتم إلى موطن الشرف القومي خفاً وثقلاً وأناديكم من معاقل الجبل المنيع، وهو داركم وسلاحكم وحرزكم وملاذكم، أن هبوا إلى المنافحة عن أوطانكم، أوطان آبائكم وأجدادكم وحطموا أغلال الاستعمار في دياركم، فقد هبت رياحكم فاغتموها، ودرت ضروع أيامكم فاحلبوها:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة أذعان

وفي الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان

أمّا بعد أيّها المواطنون إن ثورتنا الدموية هذه هي بعروتها وزرّها ثورة القائم لتحرير البلاد من المغتصبين المستعمرين، هي ثورة سورية بعيدة المدى شريفة الغاية نصايبها النفوس والأرواح والسلاح والعزمات الصادقات خالصة لوجه الاستقلال العربي، ففي سبيل استقلال بلادنا السورية حياة الأعزة نحيا، وفي هذا السبيل موت الكرام نموت....!

"لقد أوقدنا نار هذه الثورة الاستقلالية بعد أن رزحت البلاد تحت كابوس الاستعمار أعواماً خمسة ثقلاً ولسنا بتاركين من أيدينا سلاحاً ولا باغين من

الفرنسيين مسلماً ولا اصطلاحاً حتى نبليج بحد الحسام تمام المراد وهو تخليص كامل البلاد السورية العزيزة من احتلال المحتلين ونحن على مثل اليقين أن الوصول إلى هذه الغاية من السهل المستطاع ولا سيما وهي الغاية التي تفتديها الأمة بما عز لديها وهان، فلذلك أدعو سائر البلاد السورية ساحلاً وداخلاً، سهلاً وجبلاً لقدح زناد الثورة العامة في وجه الفرنسيين فمن أجاب هذه الدعوة الوطنية وسارع إلى القيام بهذا الواجب فهو العربي المخلص الأمين ومن تقاعس عن ذلك فهو الخائن لأمته وبلاده وسيلقى جزاء الخائنين.

"فيا أيها العرب الأماجد أهل النجدة والنخوة، وحدوا مساعيكم وتعاقدوا بقلوبكم وتقلدوا سلاحكم وانشروا ألويتكم، واركبوا خيولكم وصابحوا العدو الجائس خلال دياركم ببارود الثورة وخذوا عليه الطريق وارصدوا له في المكامن وقطعوا الأسلاك وانسفوا واهبطوا على مخافره في كل مكان واقتلوه حيث تقتحموه، واغنموا سلاحه وعتاده وكونوا عليه جميعاً يداً واحدة واصبروا في القتال والجلاد إن الله مع الصابرين.

"لقد جاء اليوم الذي جاد الدهر علينا لتجنية بلادنا، بلاد أولادنا وأحفادنا من بعدنا من العدو الذي قد كفى ما أنزل بالبلاد من شر وخسارة وبوار تجارة وإرهاق وتعذيب وقتل وتغريب وهو اليوم في بلادنا أضعف منه غداً وأقل سلاحاً وجنداً، فقد توالى بميادين المغرب انهزماته وتكست فيها أعلامه وراياته، وهو اليوم في الوطن السوري على حال أرق من الخيال وأقرب ما يكون من الزوال ودوام الحال من المحال فسارعوا إلى يومكم فهذا اليوم هو اليوم وهذا هو المجال، فالثورة العامة منجاة البلاد والعباد من الاستعباد وقد بلغنا إلى الآن من هذه الثورة العربية مبلغاً عظيماً محفوظاً بالنصر مؤيداً بالظفر فطردها الفرنسيين من ديار الجبل وجواره، ونجد لدركهم في مقرهم ومحو آثارهم وقد كان لنا معهم معارك دموية ما الكلام عنها بمثل العيان.

"فقتلنا جند العدو تقتيلاً وغنمنا أسلحتهم وذخائره وأسرنا ضباطه وقواده وأسقطنا من أعالي الجو طائراته وافترسنا بالفوارس العربية دباباته، وأعلننا الحكومة العربية المؤقتة لتقوم بتدبير البلاد ريثما يتم طرد العدو، فيجتمع إذ ذاك

مجلس تأسيسي ليعين شكل الحكومة التي تختارها الأمة ورفعنا العلم العربي المربع الألوان على السويداء قاعدة الجبل وفي السويداء رجال وأقمنا الحكم ووطننا الأمور والآمال بقوة من المولي المتعال وها قد أجمعنا أمرنا وأعددنا عدتنا وواصلنا الزحف على قوات العدو في كل جهة هو فيها حتى نأتي عليه، فلا نذرهُ إلا أثراً بعد عين...

وهذا بلاغنا إلى جميع الموظفين على اختلاف درجاتهم ومراتبهم، أن يكونوا أمناء على وظائفهم وأعمالهم على شريطة ألا يعاونوا السلطة المحتلة معارضة قلت ما قلت في جمع ضرائب ولا تجنيد ولا سوق عسكري ولا في أي خدمة تكون للعدو نوعاً من المدد والعون، فمن أقدم من أصحاب الوظائف الملكية والعسكرية على هذا عُدّ خائناً للبلاد يعاقب عقاب الخيانة الكبرى، ثم يجب على أولي الأمر بذل الجهد فلا يدعوا في هذه الآونة العصبية التي تجتازها البلاد في حريق النار والدم مجالاً لوقوع الاعتداءات، فيجب صيانة الأموال والنفوس ورعاية المصالح والمحافظة على الأقليات، وتظل القوانين الحالية سارية مرعية الحرمة ومن يجرؤ على ارتكاب الخيانة للبلاد وللثورة يحاكم عسكرياً.

"فإلي اليوم الذي لاح صبحه وفيه تتحرر البلاد السورية العربية، يا أباة الضيم وعياف الذل اليوم الذي تتوحد فيه البلاد مستردة استقلالها المسلوب (لوتسكي ص ١٩١).

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

يؤرخ هذا البيان أمين سعيد في كتابه الثورة العربية الجزء الثالث ص ٣٢١ إلى ٣١٥ بتاريخ ٢٣ آب سنة ١٩٢٥ كالبيان الأول.

يشير البيان إلى تشكيل الحكومة المؤقتة، ويربط أكثر المؤلفين تشكيل هذه الحكومة بوصول الدكتور الشهبندر وعدد من زعماء حزب الشعب إلى الجبل، وثمة شكوك حول تشكيل مثل هذه الحكومة المؤقتة إذ لم تظهر لاحقاً أية آثار

تدل على نشاطها، إنما ظهرت مشاورات سلطان مع قادة فصائل الثورة وقادة العصابات لتشكيل مثل هذه الحكومة كما في كتابه للقائد سعيد العاص قائد الحملة على حمص وحماه الذي يشير فيه أنه والدكتور عبد الرحمن الشهبندر بالذاكرة على ذلك، ويبدو أن تشكيل مثل هذه الحكومة على مستوى البلاد السورية لم تتحقق وقد تمت تشكيلات أجهزة للسلطة الوطنية الثورية، وقد ظهرت مثل هذه الأجهزة المحلية للسلطة الثورية في جميع المناطق الخاضعة لسيطرة الثورة وجميعها كانت تطلق على نفسها اسم حكومة، لكنها لم تكن تطمح إلى القيام بدور حكومة لعموم سوريا.

البيان الثالث:

منشور عنوانه: الاستقلال يؤخذ ولا يعطى - الحرية والمساواة والإخاء

يا بني وطني:

لا تنافس في الأهواء ولا خصومات ولا أحقاد طائفية بعد اليوم، إنما نحن أمة عربية سورية، أمة مستضعفة قوية في الحق، قد انتهت إلى المطالبة بحقوقها المهتم، أمة عظيمة التاريخ، نبيلة المقاصد قد نهضت تريد الحياة والحياة حق طبيعي وشرعي لجميع الأمم، وقد قسمها الاستعمار الأجنبي فوحدتها مبادئ حقوق الإنسان وإعلام الحرية والمساواة والإخاء، نعم ليس هناك درزي وسني وعلوي وشيعي ومسيحي ليس هناك إلا أبناء أمة واحدة وتقاليد واحدة ومصالح واحدة ليس هناك إلا عرب سوريون.

يا بني وطني: ليس لكم بعد الآن على اختلاف المذاهب والفئات إلا عدو واحد هو الحكم العسكري الجائر والاستعمار الأجنبي، فانفروا إلى إنقاذ البلاد من أوضاعها السيئة وارفعوا علم الاتحاد والتضامن والتضحية، إن حركتنا اليوم هي حركة مقدسة غرضها المطالبة بالحرية والاستقلال وضمان حقوق البلاد على مبدأ سياسة الأمة فليتحدهم الدرزي والسني والعلوي والشيعي والمسيحي اتحاداً وثيقاً وليؤلف بين قلوبنا الإخاء القومي ومحبة الوطن ولتكن إرادتنا حديدية واحدة.

إن قائد جيوش الثورة الوطنية السورية المقدسة يطلب إلى كل العرب السوريين:

١- إعلان الإخاء الوطني بين كافة الطوائف.

٢- قيام الأحياء (الحارات) في كل مدينة بصيانة الأمن الداخلي كل بحسب جبهته عند دخول جيوش الثورة الوطنية وانهازام المستعمرين.

٣- دوريات ومخافر وطنية يمشي على رأسها الزعماء المخلصون المحترمون من الأمة لتأسيس الاتصال الداخلي لحفظ الأمن وصيانة الأموال ومنع التعدي.

٤- إرسال قوة محلية من المتطوعين إلى خارج المدينة أو القرية لاستقبال كتائب الثوار الوطنيين بالأهازيج الحماسية عند وصولهم باعتبار جميع أفراد الأمة جيشاً واحداً لهذه الثورة المقدسة.

"هذه التعليمات التي يجب أن يتبعها الشعب العربي السوري في المدن والقرى تأييداً للأخوة القومية والثورة الوطنية، ولتحيا سورية حرة مستقلة"

سلطان الأطرش

قائد جيوش الثورة الوطنية السورية العام

يؤرخ أمين سعيد هذا البيان في ٢٣ آب سنة ١٩٢٥. يعقب هذا البيان في كتاب لوتسكي حديث صحفي لحنا أبو راشد مع سلطان الأطرش يعارض فيه بشدة عودة الحكم التركي والانتداب الفرنسي ويلمح إلى أنه لا يطمح إلى القيام بدور رئيس الدولة السورية، لكنه يريد تحرير سوريا ومن ثم تسليمها لمجلس وطني عام يسن قوانين البلاد ويختار شكل الحكم "لوتسكي ص ١٩٤"

الفصل الرابع

معركة المسيفرة

أ- معركة المسيفرة (فزة في تاريخ الثورة)

بعد مؤتمر ريمة للحف دعا قائد الثورة إلى الاجتماع في قرية "سهوة البلاطة" في السادس عشر من شهر أيلول سنة ١٩٢٥ وقد وصلت إلى الاجتماع رسالة من الثعلة من المجاهد محمد عز الدين جاء فيها ما يلي:

"نعلمكم أن الجيش الفرنسي قد تمركز في قرية المسيفرة ونصب خيامه على البيادر والأراضي المجاورة لها وحفر الخنادق ومد الأسلاك الشائكة حولها، وقد وصلت طلائعه إلى تلول خليف بحيث أصبحت تهدد قرانا القريبة بالخطر العظيم وقد اشتبكت خيالتنا معها مساء أمس وصباح اليوم، نقترح مهاجمة المسيفرة واحتلالها فوراً قبل أن تقوى شوكة الفرنسيين فيها وتغدو قاعدة حصينة لهم يشنون منها غارات علينا....."^(١)

وبعد المشاورة بالاجتماع لم تجد القيادة التعرض للعدو في منطقة سهلة فقررت الانتقال إلى قرية كناكر الأقرب للحشود الفرنسية لالتقاء بعدد أكبر من القادة وأهل الرأي.

وهنا تغلب الحماس الشديد على الرأي السديد في خضم الأهازيج الحربية والنخوات الشعبية وبات الزحف العام على المسيفرة في ظلمة الليل الحالك أمراً لا مفر منه لمباغته العدو وإبادته قبل السابع عشر من أيلول سنة ١٩٢٥. وهنا يروي سلطان الأطرش الوقائع بمذكراته كما يلي:

تقدمت الجموع بعد منتصف الليل بحذر شديد حيث توقفت قليلاً قرب تلول خليف لتصل البيارق المتأخرة ويكتمل الحشد، ثم تابعت زحفها من جديد بعزيمة ثابتة وإرادة لا تقهر، وكان في المقدمة حملة البيارق من السويداء وأكثر القرى مع

^(١) مذكرات ح ١٠.

مشاهير القادة الأبطال مثل محمد عز الدين، نزيه المؤيد العظم، سرحان أبو تركي الديري، حمزة درويش، عبد الغفار الأطرش وعدد كبير من شيوخ الدين الأتقياء مثل سعيد الحجلي وسعيد الحناوي.

كانت القوات الفرنسية متحصنة داخل بيوت القرية وقد حفر الخنادق والاستحكامات على محيط القرية مع خطوط الأسلاك الشائكة والعريضة والآليات المدرعة ومرابض الرشاشات الكبيرة ومدافع الميدان الثقيلة، وقد أشارت أكثر المعلومات لتعدادها بحوالي ألفي مقاتل بقيادة الكابتن " أندريا ANDRIA"^(١)

حوالي الساعة الثالثة والنصف صباحاً أشرفت مقدمة الثوار على خطوط العدو من الناحية الشمالية الشرقية للقرية في سهل منبسطة فسيح يمتد على مساحة واسعة ومن هنا انطلق عيار ناري نبه قوات العدو التي أخذت زمام المبادرة فأطلقت في الحال الأسهم المشعة التي أضاءت سماء المعركة وأمطرت الثوار بوابل من رصاص بنادقها ورشاشاتها ومدافعها أوقع أكثر من مئتي تائر بين قتيل وجريح في السهل المكشوف لنيران أسلحتها الغزيرة، مع ذلك استمر هجوم الثوار العنيف فالتحم بعضهم مع الجنود في استحكاماتهم بالسلاح الأبيض واجتاز البعض الآخر بجياده الأصلية الحواجز والأسلاك الشائكة ليدخل القرية ويحتل الجبهة الجنوبية الشرقية منها ويركز راياته فوق أسطح المنازل وراح ينازل الجنود في تحصيناتهم داخل بيوت القرية وفي طرقاتها فاستولى الثوار بذلك على كثير من الأسلحة والذخيرة التي ساعدتهم على مواصلة المعركة داخل القرية كما استولوا على اصطبلات الخيول والعقاد والتموين.

في صباح ١٧ أيلول سنة ١٩٢٥ شن الثوار الذين لم يتمكنوا من دخول المسيفرة ليلاً هجوماً نهائياً لسحق مقاومة العدو إلا أنهم اضطروا للتراجع تحت ضغط نيران العدو المستميت وغارات طائراته التي بلغت سبعمائة وعشرين غارة خلال ثلاث ساعات "الكتاب الذهبي لجيوش الشرق" أمطرت الثوار بسيل من نيران القنابل والرشاشات

(١) نفس المرجع.

أبعدتهم حتى قرية أم ولد ، لكنهم تقدموا بعد ذلك حتى تلول خليف وأرسلوا فصائلهم تهاجم الجناح اليساري والجهة الغربية للحملة الفرنسية لتقطع طريق الإمدادات عنها وقد استولت على طريق درعا المسيفرة ثم طريق الكرك المسيفرة.

عند العصر تقدمت كتيبة الفرسان السباهية الفرنسية تهاجم الثوار داخل المسيفرة فتناخوا وأطلقوا أهازيج تشق عنان السماء واشتبكوا معهم في معركة حامية الوطيس ردت السباهين على أعقابهم قبل المغيب. وعندما خيم الظلام تنادى الثوار للخروج من القرية التي كانت مليئة بجثث الجنود والخيول، وغنموا كثيراً من الخيول والأسلحة، خرجوا من المنفذ الوحيد نحو الشرق تحت وابل من رصاص العدو الذي تنفس الصعداء. وانفجرت أزمته بخروج الثوار من القرية تاركين الرايات منصوبة على سطوح المنازل لصعوبة نقلها بين الأسلاك الشائكة في الطريقة الطويل المعرض لرصاص الجنود المحصنين في خنادقهم.

يضيف سلطان الأطرش بمذكراته:

كان هذا الانسحاب صدمة لقيادة الثورة التي كانت تواصل الجهد لقطع اتصال العدو مع مراكز إمداده الرئيسية الثلاث "إزرع - خربة غزالة - درعا" لتشديد الحصار على الحملة والإجهاز عليها في مواقعها. وقد فقدت الثورة بذلك أهم عنصر من عناصر النجاح في الهجوم على المسيفرة. وأصبح من الصعب إعادة الوضع لما كان عليه. وتراجع الثوار تاركين حوالي ٢٠٠ شهيداً قدموا أرواحهم الطاهرة فدى للوطن في سبيل التحرير والاستقلال منهم:

الشيخ سعيد الحجلي - والشيخ سعيد الحناوي والشيخ سلمان حمزة وأولاده الخمسة "يوسف وسليمان مهنا وسليم نصر الدين" كما استشهد المجاهد عطا الله العودة من مسيحيي أم الرمان وكان من ضحايا الغدر الفرنسي ثلاث من أعيان المسيفرة هم:

محمد الزعبي وعبد الحليم المصطفى وحمد الموسى أعدموا رمياً بالرصاص في أعقاب المعركة بسبب تأييدهم للثورة.

أما خسائر الفرنسيين فقد قدرت بتسعمائة قتيل وعدد كبير من الجرحى بالإضافة للعتاد والذخيرة والخيول^(١)

يقول الأستاذ منير الرئيس:

معركة المسيطرة فذة بتاريخ الثورة

تعد من أكبر المعارك فخراً لأبناء معروف فلولا الطلقة النارية التي نبهت الفرنسيين في بداية المعركة لدخل الثوار القرية في الظلام وأجهزوا على الحملة في تحصيناتها.

استغل الفرنسيون انسحاب الثوار من المسيطرة وطبلوا وزمروا لنصرهم الوهمي وعرضوا الرايات التي تركها الثوار على سطوح المنازل كأنها رايات كسبوها في المعركة بعد قتل الجموع التي تسير تحتها. ومن دجلهم اعترفوا بعدد قليل من الضحايا "ضابط وخمسة وأربعين جندياً قتلوا وأربعة ضباط وثلاثة وسبعين جريحاً من الفرقة الأجنبية وضابط وأربعة عشر قتيلاً من الرماة التونسيين" كتاب جيوش الشرق.

وهنا يذكر قائد الحملة أندريا في مذكراته وصفاً للهجمات قائلاً:

كثيراً ما أذهلنا الدروز بشجاعتهم الخارقة حيثما كانوا ينقضون على قواتنا المجهزة بالرشاشات وجهاً لوجه دون أن يتخذوا متراساً أو أي شيء يقيهم رصاصنا المنهمر حتى يبلغوا الاستحكامات ويقتلوا الجنود فيها.

وهذه مقتطفات من دوتي من جنود الصف الفرنسي: "في كتابه الفرقة الجهنمية" الفصل السابع والثامن وقد أوردتها الأستاذ سلامة عبيد في كتابه "الثورة العربية السورية على ضوء وثائق لم تنشر".

كان علينا أن ننشئ موقعاً هناك في المسيطرة وأن نذود عنه مهما كلف الثمن، والمسيطرة مجموعة من البيوت الكثبية ذات السطوح الترابية بتوسطها جامع، وكان من تبقى من السكان البؤساء فيها ينظرون إلينا شزراً، وما عتونا أن علمنا أنهم

(١) مذكرات: المرجع نفسه (م ج ١)

متواظئون مع العدو وأنهم يعملون لحساب الدروز، ينقلون إليهم المعلومات الكاملة عن تحركاتنا وعن قواقتنا أيضاً.

بنينا ستة جدران صغيرة تحيط بالبلدة إحاطة تامة، ومن ثم جداراً واحداً في الوسط في الساحة العامة.

كانت المعاقل متباعدة إلى حد بحيث يظل العدو تحت المدى المجدي لنيراننا، إذا حاول أن يقوم بأي هجوم على القرية وتركز القائد وأركان حربة في بيت حجري محصن قرب الجامع وتركزت كوكبة الخيالة التي كانت ترافقنا وهي كوكبة الفرقة الأجنبية وفيها عدد كبير من القوزاق، تركزت في قلب القرية. وكان كل معقل وحدة مستقلة كفيلة بالدفاع الذاتي. كان كل واحد خلف متراسه وعليه أن يدافع عن خط طوله خمسة عشر قدماً "خمسة أمتار" ومن ثم طوقت هذه الجدران الدفاعية بخط رفيع من الأسلاك الشائكة.

كنا ننام دوماً وبنادقنا مشدودة إلى سواعدنا في مثل هذه المنطقة حيث كان الدروز بارعين لا يعرفون التعب في الزحف إلى داخل المعسكرات في الليل ليخطفوا من جندي غافل بندقيته ويفروا بها بعد أن يحزوا عنق صاحبها.

ولم نكن نكتفي بأن نشد بنادقنا إلى سواعدنا بل ننام فوقها أو نتوسدها وكان مجموع رجالنا في هذا المعسكر ستمائة على الأكثر^(١).

وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً كان أحد الرقباء يتفقد المخافر فخيّل إليه أنه يسمع صوت حجر يتدحرج في المنحدر المقابل للمعسكر من جهة العدو، ألصق أذنه في الأرض فسمع حجارة تتدحرج ووقع مناسم جمال فصرخ بصوته المدوي "إلى السلاح" راح النداء يتردد من معقل إلى معقل فوثبنا على أقدامنا واتخذنا متاريسنا وألقمنا بنادقنا وهكذا كنا على أتم الاستعداد في تلك الليلة الباردة القارسة. مرت برهة دون أن يحدث شيء..... كان قد حدث قبل هذا الإنذار في الليلة السابقة ولكنه كان إنذاراً كاذباً سببه أحد جنود الفرقة وهو برتغالي صغير شبه مجنون خيل إلينا أن ما حدث في هذه الساعة هو شبيه ما حدث أمس ورحنا نشتم أجداد ذلك

(١) الكتاب الذهبي: يثبت أنها لواء وكتيبة على الأقل أي ثلاثة أضعاف ما يذكر دوتيه.

الذي أيقظنا ، ولكن سرعان ما رأيت وميضاً يسطع في الظلام وأحسست برصاصة تنز فوق رأسي وفي الحال اشتعل الظلام بنيران البنادق وراحت جحافل الطلقات النارية تغني فوق رؤوسنا أو تنز على الجدران بأصوات شبيهة بمواء القطط. أطلق ضوء كشاف تشكف لنا على نوره أن المنحدر الذي يوجهنا والمسيل الفاصل بيننا وبين ذلك المنحدر وفي كل جهة من الأرض المحيطة بنا كلها تعج بأشباح تزحف بصمت. وما كاد الضوء يفضح سرهم حتى انفجروا بالهتافات المدوية الأشد شراسة وترويعاً. كنا نحن أيضاً نطلق النار ولكن المرء في مثل هذه المعركة يطلق النار وهو لا يعلم أنه يطلق، كانت المعركة في البدء معركة مريكة رهيبة لم يبق في الفضاء من الأضواء الكشافة إلا القليل وكان الليل حالكاً لا ينيهر غير النيران المنطلقة من بنادقهم أو من بنادقنا إلا أن عدداً منهم تمكن من اختراق معاقلنا والوصول إلى داخل القرية حيث استطاع المعقل وقيادة الأركان المحصنة الثبات بعناد مستميت إلا أنهم تمكنوا من احتلال معقل الخيالة حيث قضى عل ٢٩ قوزاقياً الذين يحرسونه ومن ثم استولى المهاجمون على خيول الكتيبة وعندما بدأوا يفرون بها خارج القرية كان الفجر قد انبج وأصبحت الرؤية أفضل وبما أن الحصان أكبر من الفارس فكان التسديد عليه وقتله أسهل وهكذا أخذنا نطلق النار على خيولنا ذاتها دون أن نفكر أنها خيولنا نحن.

نرمي الفرس فيرمي الفارس راجلاً فاقد الرجاء تطوقه نيران البنادق، قليلون منهم استطاعوا النجاة تحت حماية نيران إخوانهم التي كانت تنصب علينا من المنحدر ومن ثم طلع النهار فظن بعضنا أن كل شيء قد انتهى ولكن ما حدث لم يكن إلا مناوشة مناورة أولى من العدو نجحت إلى حد ما فقد حرمتنا من خيولنا وحولتنا إلى جماعة من المشاة، خلال دقائق كانت الشمس تشرق وراح نداء إلى السلاح ينطلق من جديد فوثبنا جميعنا إلى متاريسنا. كان المشهد الذي يواجهنا الآن مشهداً غريباً مشهداً مخيفاً رهيباً لم يكن الواحد منا مخموراً بنشوة المعركة كان الدروز يتدفقون فوق المنحدر وتحت أقدام التلة وكأن الأرض هي نفسها التي تميد

خمسة آلاف منهم خيالة ومشاة^(١) كان المشاة بالمقدمة وخلفهم الفرسان وهم على استعداد لقيادة الهجوم خلال الثغرات التي تتركها فصائل المشاة.

كانوا جميعهم بملابس الحرب الخفيفة بستر قصيرة وبلا عباءات وكوفياتهم^(٢) الملونة تتماوج في الهواء كانوا يلوحون ببنادقهم هازجين مدممين وهم يتقدمون وفي طليعتهم ترف أربعة أعلام سوداء كبيرة تحف بأمرهم^(٣).

عادت رشاشاتنا وينادقنا تدوي إلا أن تلك الكتلة البشرية كانت تتقدم صوبنا في هجوم ضار مستमित وهم يتصارخون بعزيف يشبه الجن مرددين:
يا الله - يا الله - يا الله !!

كانت موجة الهجوم تنكسر بين الحين والآخر على بضعة أمتار من متاريسنا وبين الحين والآخر كنت أستطيع أن ألقى نظرة خاطفة على ذلك المشهد الغريب الرائع، لقد استطاع الهجوم الأول أن يصل بعض المهاجمين إلى داخل القرية وقد كانت إلى يميننا ولكن دون أن يجتاحوا أي معقل من معاقلنا.

كان إلى جانبنا وبالقرب من ساحة القرية مزار "ضريح لأحد الأولياء" يتحكم موقعه بساحة البلدة وفي هجوم أشبه ما يكون بموجة تنساب فوق شاطئ رملي راح الأمير يتوج ذلك المزار بأعلامه الأربعة السوداء الكبيرة ثم هز حصانه ليستدير صوبنا.

وفي حركة واحدة ركز حرسه ذوي الألبسة الملونة تلك الأعلام فوق المزار وهم يغرسونها بعزم وقوة في الأرض كأنكما يقصدون منها أن تبقى هناك إلى الأبد ومن ثم ترجل بهدوء في ظلال بيارقه المرفرفة وأخذ يدير المعركة من هناك. وفجأة تغطت سطوح القرية بالقناصة من المهاجمين وراحوا يغمرون معقلنا بنيران لم نكن نستطيع الرد عليها بسبب انشغالنا بالهجوم المنقض علينا.

(١) ربما كان الخوف هو الذي جعل دوتي يرى الواحد عشرة.

(٢) الكوفيات: أغطية الرأس الواسعة.

(٣) الأعلام البيارق وهي غالباً باللون الأحمر.

كانوا يتقدمون من ذلك المنحدر متدفقين من حجر إلى حجر ومن جدار إلى جدار مثل شلال كبير ومن ثم يندفعون نحونا في تلك الأرض العراء وكانوا كثيراً ما داهموا متاريسنا رغم غزارة نيران بناقدنا المتدفقة من كل صوب وإن بعضهم والحقيقة تقال ماتوا في ظل متاريسنا تلك، وعندما كان كل شيء قد انتهى وجدنا جثة واحدة من أولئك الدراويش الشيوخ الجبليين ويداه متشبثتان بجدار متراسنا. لقد كان يهاجم رشاشاتنا على ما يبدو وهو أعزل من السلاح كان مسجى هناك وأصابه متشبثة في الزاوية الداخلية من الحاجز وقد تطاير فوقها رذاذ من دماغ جمجمته المهشمة وقد أدهشنا أن نجد في تلك الجثة ثلاثين إصابة من طلقاتنا كان الموقف يبدو ميؤوساً منه بالنسبة لنا. صحيح أننا استطعنا أن نثبت في معقلنا ولكننا لم نتمكن من منع تسلل تلك الجماعات إلى داخل القرية في حين كان القناصة من الثوار يحطرون معقلنا بوابل من رصاصهم، كانت موجات الهجوم متلاحقة لا تتخللها إلا فترات خاطفة من الاستراحة تتجدد فيها حماسة المهاجمين وانطلاقهم المستميت وهم يحدون، وهكذا كان حال معاقلنا الأخرى في مقاومتها فكأنما هي قوارب صغيرة يتقاذفها خضم هائج، لقد رأيت أولئك الجبليين المتعصبين يتقدمون نحونا وفي أجسامهم عدد من رصاصنا يتقدمون ليموتوا في أسلاكنا الشائكة حتى الجرحى كانوا يتابعون إطلاق النار كانوا مستخفين بالموت يطلقون النار بلا هودة من وراء صخرة أو حتى في الأرض العراء حتى آخر خلجة من خلجاتهم، لقد مرت بي ساعات أحسست في بعضها وكأنني أعيش حلماً لا حقيقة، فقد حرت لأنه انقض نحو متراسي فجأة عشرة من الدروز في هجوم مستميت فخيّل إليّ أن حركتي قد شلت وذلك لأنهم كانوا جميعاً من الشيوخ بلحى مشعثة طويلة تتدلى فوق صدورهم وأحياناً حتى الركب.

تقدم أولئك الشيوخ القصير والقامة والغريبو المظهر متحدين نيراننا المركزة وكأنما هم أرواح سحرية من عالم غير عالمنا، ظلوا يتقدمون حتى أسلاكنا الشائكة ومن ثم وبحركة واحدة راحوا يقفزون من فوقها ولحاهم فوق ركبهم، وفجأة سقطوا جميعاً دفعة واحدة كانوا يحملون في جسومهم عدداً من الرصاصات

منذ اللحظة التي انطلقوا فيها من وراء الجدار وإني أجزم بأن العديد قد ماتوا وهم وقوف على أقدامهم في تلك الهجمات المتلاحقة....

لقد تكوموا هناك حيث أخدمنا آخر خلجة من خلجاتهم بالقذائف اليدوية وفجأة ازداد الموقف تأزماً لقد كادت ذخيرتنا تنفذ والدروز يستعدون لشن هجوم جديد لكن زئيراً في الفضاء بدأ يدوي وعندما رفعنا عيوننا نحو السماء شاهدنا سبع أو ثماني طائرات تحلق فوقنا وتقصف الدروز ثم تنخفض أكثر فأكثر لتحصدهم برشاشاتها. ثم بدأت النجذات من الجيش تتوالى وبدأ انسحاب من تبقى من المهاجمين الذين كانوا قد احتلوا قسماً من البلدة بعد قتال مرير من بيت إلى بيت... وفي اليوم الثاني كان الشيء الذي أدهشني هو عدد القتلى من الدروز كانوا ممددين فوق الأرض العراء مبعثرين ما بين الجدران والمتاريس فقد كانوا مكسدين مثل أكوام من الثلج كورتها العاصفة، ثم بدأ تطهير القرية، كل القرية، ومن ثم أمر الكولونيل أندريا أن تجمع الجثث في صفوف أمام القرية لتكون عبرة إذ أن هذه القرية "المسيفرة" كانت تعتبر قرية طائعة قبلت الخضوع للسلطة الفرنسية ودفعت الضرائب إلا أنها أثبتت أنها قرية غدارة، وقد أرغم كل من وقع في الأسر من الدروز والحوارنة على نقل تلك الجثث وما كادوا ينجزون ذلك العمل حتى أعدموا رمياً بالرصاص وقد علمت أنهم أعدموا جميعاً، كان علي أن أشهد مأساة أخرى رهيبة لقد خسر أحد رفاقنا الألمان صديقاً له في تلك المعركة، فملاً صفحة من الماء وعمر مسدسه وأخذ يتجول بين الجرحى والقتلى الدروز فيقرب صفيحة الماء من الجريح حتى تلامس شفتيه ثم يفجر دماغه بطلقات مسدسه ومن ثم فقد سألت ألم تدفنوا القتلى من الأعداء فأجاب لا لم نفعل لأننا كنا مشغولين بدفن قتلائنا، وإنما أمكن في بعض الحالات أن نحرق جثثهم أما الجرحى من الأعداء فلم نهتم بهم أيضاً. يعتبر أكثر المؤرخين والرواة أن المسيفرة في تاريخ الثورة فخ كبير نصبتة القيادة الفرنسية للإيقاع بالثوار واستعادة كرامة فرنسا المتمرغة بالوحل على أرض الكفر والمزرعة، لكن أكثر المؤرخين يتساءل مثل سلامة عبيد في كتابه ص ١٥٣ :

لماذا تورط المجاهدون في مقابلة العدو في أرض سهلية مكشوفة؟

وكيف تعاملوا مع الفخ المنسوب؟ فلم يستمعوا لرأي سلطان الذي لم يحبذ تلك المغامرة...!!

ثم يجيب على ذلك التساؤل بإيراد العوامل المرجحة للهجوم وهي:

١- نشوة النصر التي كانت لا تزال عارمة في نفوس الثوار تزيدهم حماساً بعد معركة الكفر والمزرعة.

٢- فكرة المباغته واعتقاد الثوار أنه يمكن الانتصار على الحملة قبل وصولها إلى الجبل دون التقيد برأي القائد الذي لم يكن دائماً ملزماً لكل ثائر!!

ويذكر من عوامل فشل هذا الهجوم: فقدان عنصر المباغته وبسالة الطليعة المتمركزة بالمسيفرة من أفراد الفرقة الأجنبية ومهارتها القتالية .

ومع أن المسيفرة ربما كانت فشلاً لكنها تبقى واقعياً من أشد المعارك شراسة وأقواها تعبيراً عن البطولة والإقدام!!

٤- المرحلة التالية لموقعة المسيفرة وإنقاذ الحامية المحاصرة في القلعة

ترك الحديث هنا للكتاب الذهبي الفرنسي كما فعل الأستاذ سلامة عبيد في كتابه ص ١٥٥.

"أصبح إنقاذ السويداء فرضاً لازماً على أن وسائل جيش الشرق لم تمكنه من أن ينشط إلى هذا العزم إلا في شهر أيلول عندما وصل فيلق الرماة التونسيين السادس عشر الذي تكون منه جيش الإنقاذ، فتوافدت قوات هذه الجيش إلى المسيفرة في ٢٢ أيلول حيث اشتملت على العناصر الآتية بقيادة الجنرال غاملان:

أ - المشاة بإمرة الكولونيل أندريا:

اللواء الخامس من الفيلق الأجنبي الرابع.

ثلاثة ألوية من الرماة التونسيين.

ثلاثة ألوية من الرماة الإفريقيين

لواء من الرماة السنغاليين.

ب - الخيالة : بإمرة الكولونيل ماسيت :

أربع كوكبات من فيلق الصباحيين المراكشين.

كوكبة من فيلق الصباحيين التونسيين.

كوكبة شركسية بقيادة اليوتان "كوكبة"

ج - المدفعية : ست كوكبات مدفعية :

بطاريتان من عيار ٧٥ (البطارية أربعة مدافع).

بطاريتان من عيار ٦٥.

ء - شعبة فنية هندسة.

هـ - كتيبة دبابات مصفحة.

ز - قافلة الذخيرة بإمرة الكولونيل كورنيه :

تحمل ١٦ طناً من الخرطوش و ٢٤ طناً من الذخائر و ٣٠٠ طناً من المؤن و ١٨ طناً

من الماء و ٥٥ طناً من البنزين.

ح - المصلحة الصحية سرية واحدة :

أعد غاملان الحملة الكبيرة للتقدم إلى الجبل على الشكل السابق، وكانت

الطائرات الفرنسية تقصف السوياء كل يوم تقريباً، وعشية الهجوم في ٢١ أيلول

ألقت الطائرات الفرنسية البيان الآتي على قرى الجبل^(١) :

(من الحكومة المنتدبة إلى سكان جبل الدروز)

أيها الدروز : اقتربت الساعة التي تعرفون فيها قوة جيشنا والتي ستحملون فيها

نتائج ثورتكم لقد أختبرتم مضاء سلاحنا في معركة المسيفرة وأنه لواجب أن

نذكركم أن فرنسا لا تقااتلكم وهي مدفوعة بعامل البغض لكنها تعاقب

المجرمين كالأ بحسب جرمه.

(١) فلاديمير تروتسكي ص ٢١١.

إن الأشخاص ذوي البصيرة الذين يتركون منذ الآن السلاح ويقدمون خضوعهم سيكونون في مأمن فيما إذا استسلموا لأحد مخافرتنا. وكذلك نضمن الحياة للشيوخ الذين يأتون إلى دمشق لتقديم خضوعهم.

أيها الدروز: عودوا إلى رشدكم وقدموا خضوعكم، إذ لا يزال لديكم وقت للخضوع.....

ألقوا السلاح، وتقلدوا بدلاً منه المحراث لإنبات أَرْضكم فذلك خير لكم ول مستقبلكم.

- لم يعط هذا البيان النتيجة المرجوة منه، فلم يستسلم أحد من الثوار. وفي اليوم نفسه ردّ سلطان الأطرش عليه بسخرية مرة فقال:

تناولنا اليوم دعوتكم الكريمة إلى السلم مع القنابل المتفجرة من الطائرات فلم يزدنا هذا التناقض الغريب علماً بالوضعية الحاضرة. إن ما جاء فيها من التهديد المشوب بروح العطف يلفت الأنظار لأن الجيش الذي اقتحم سوريا هو كطياراتكم من عادته عند سنوح الفرصة أن ينفذ صامتاً خطط الفتح من غير الالتفات إلى عويل الأمهات وبكاء الأطفال.

تذكرون مضاء سلاحكم في معركة المسيفرة ولم تذكروا مضاء العزائم التي غنمت هذا السلاح في عقر استحكاماتكم وسحبت الخيول من أيدي أصحابها المقتولين في سبيل الفتح والاستعمار، وإذ كانت فرنسا كما تقولون لا تقاتل مدفوعة بعامل البغض بل تعاقب المجرمين بحسب جرمهم فثّقوا أننا لا نقاتل إلا دفاعاً عن الشرف القومي الذي عبث فيه موظفوكم والحرية التي ماتت تحت أقدامها رجال ثورتكم الباهرة....

تقولون إن الأشخاص من ذوي البصيرة الذين يتركون منذ الآن السلاح يكونون في مأمن على حياتهم إن بين البصيرة وترك السلاح تناقضاً ما كنا لنذكره لو لم يكن له سابقة على عهد الحكومة الوطنية السورية لما آمنت بمواعيد أسلافكم فحلّت جيشها في أواخر يوليو سنة ١٩٢٠ وحكم على زعمائهم بالموت في أوائل أغسطس، إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وقبل الوقوع بمثل هذا الفخ عليكم أن

تبيضوا الصفحات السوداء وتعيدوا إلى الشرق حسن السمعة التي كنتم تتمتعون بها قبل أن تطلاً أقدامكم هذا الوطن المقدس.

تدعوننا إلى إلقاء السلاح وأن نتقلد بدلاً منه المحراث، إننا ما حملنا السلاح إلا دفاعاً عن هذا المحراث الذي هو فخرنا إننا نريد أن نحمل المحراث لنحصد منه الخير لنا ولأولادنا ولكن إذا كانت ثمرة أتعابنا تذهب إلى بطون رجال أمثال من غرمونا آلاف القروش لفقد هرة في السويداء وصفعوا أشرافنا وخيارنا لاستنزاف أموالهم فإن السلاح يكون خير ضامن لهذا المحراث.

إننا نرغب في السلم من صميم الفؤاد... ونمد إليه أيدينا ولكن على الشروط التي أذعنّاها في منشوراتنا السابقة.

اتبع بعد ذلك سلطان الأطرش الدعوات لاستنفار القرى وهذا نموذج من دعوات الاستنفار التي عممت على قرى الجبل لتبلي الجهاد^(١).

الثعلة - ولغا - ريمة حازم - قنوات - مفعلة

"حضرة بنو عمنا بيكوات وأعيان ووجوه القرى المحررة أعلاه الأفخمين"

تحية وسلام نبدي الآن وأصل طية صورة عن القرار الذي اتفقت عليه الآراء. - الأمل بعد الاطلاع كل قرية منكم على مندرجاته (على ما جاء فيه) العمل بموجبه ثم مؤمل حضوركم جميعاً خيلاً ورجالاً وبيارق مع زهاب (مؤونة أربعة أيام) والميعاد يوم الخميس القادم في ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤ بقريتي عرى والمجير وها نحن مع عموم الدروز بانتظاركم والأمل عدم التأخير كون الأمر لازم وضروري وسلامنا لمن عندكم وأدام الله بقاءكم.

أخوكم "سلطان الأطرش"

معركة السويداء الأولى ٢٣ - ٢٦ أيلول ١٩٢٥م

بدأ الجيش زحفه مبكراً صبيحة ٢٣ أيلول في تمام الخامسة والنصف من شرق المسيفرة باتجاه السويداء^(٢) وفي تمام الساعة الثامنة التأمّت الصفوف جميعها في

(١) مذكرات ح ١١.

جبهة عريضة تحميها من الجانبين كوكبات الفرسان الموزعة على جانبي طريق الزحف بين المسيفرة وتل الشيخ حسين حتى احتلت تل الحديد وراحت تصب قذائف مدفعيتها الثقيلة وقنابل طائراتها على مواقعنا المحيطة بالمدينة من الشمال والغرب والجنوب.

لقد كانت المعركة عنيفة وشديدة تمكن الفرسان فيها فرساننا ورجالنا من صد هجمات العدو المتتابعة وأحبطت خطته في الوصول إلى رساس وكوم الحصى والشقراوية قبل ظلام الليل وكبدته خسائر كبيرة في العتاد والأرواح، وقد ورد في المذكرات ما يلي:

في صباح اليوم الثاني ٢٤ أيلول، شن الفرنسيون هجوماً كبيراً فتحوا به ثغرة واسعة في الشمال الغربي من جبهتنا وانطلقوا منها إلى مدينة السويداء وتمركزوا داخل قلعتها الحصينة وفي الهضاب المحيطة بها، ثم راحوا يعملون نهباً وتدميراً وحرقاً في بيوتها وينتهكون حرمت مجالسها، ومقامات الأولياء فيها كمقام الشيخ عثمان ومقام مار الياس ومقام عين الزمان التي اضرموا النار فيها بعد أن سلبوا أثاثها وسائر موجوداتها، وقد سارعنا لضرب الحصار عليهم وقد أثر العطش بهم بعد قطع الثوار لمياه عين قينه عن المدينة فحاولوا جلب الماء من قرية مصاد المجاورة لكنهم أخفقوا وقتل منهم أربعون جندياً، وعندئذ أيقن غاملان بالهلاك إذا بقي رهن الحصار المضروب عليه فآثر الانسحاب مساء يوم ٢٦ أيلول. كان جيش غاملان المهزوم يضرب خيامه في المسيفرة لاستدراج الثوار إليها مرة ثانية لكنه لم يفلح فنظم قواته وعاد يتحرك من جديد باتجاه السويداء اعتباراً من أول تشرين الأول فاحتل قرية خربا وأحرق دار المجاهد عقلة القطامي أحد أعضاء قيادة الثورة.

ثم صب قنابل مدافعه وطائراته على تجمعات الثوار متقدماً حتى وصل غرب المجيمر فاحتل تل الحبس قرب تل غسان، استخدم بعدها سلاح الطيران والمدفعية بمعركة ضارية استشهد فيها المرحوم نسيب الأطرش وعدد من الثوار انتهت إلى احتلال بلدة عرى ويات الجيش فيها واتخذ غاملان من دار عرى مقراً لأركان حربه.

(١) الكتاب الذهبي ص ١٥٢.

وقد هدد الأمير حمد الأطرش بنسفسها وتهديمها بالديناميت مما اضطره إلى الاستسلام للفرنسيين في ٢ تشرين، وقد أثار هذا الاستسلام غضب سلطان الأطرش فدعا لاجتماع طارئ على نبع عرى قرر فيه خلع الأمير حمد من زعامة الجبل وتنصيب الأمير حسن بن يحيى الأطرش زعيماً مكانه^(١) وكان قد أبلى بلاء حسناً في المعارك السابقة خاصة في معركة تل الخروف.

معركة رساس الرهيبة

لم تتوقف الحملة الفرنسية في عرى حيث زحفت في اليوم التالي نحو السويداء فدخلت قرية رساس عنوة مصطحبة معها الأمير حمد الأطرش وراحت تتهياً وتستعد لاجتياح مدينة السويداء لكن الثوار زحفوا من كل جانب وصوب بفرسانهم وبيارقهم وأمازيجهم الحربية وأحاطوا بها من كل جانب بمعركة رهيبة استمرت ثلاثة أيام عرفت بمعركة رساس تكبد فيها العدو خسائر فادحة في الجنود والعتاد وأسقط له الثوار طيارتين بنيران بنادقهم فاضطر للانسحاب مبكراً باتجاه تل الحديد حيث مني عند العصر بانكسار شنيع عندما لاحقه المجاهدون حتى المزرعة ثانية حيث رقد جنودهم ليلتهم في خيامهم يرتعدون بين حطام الدبابات وجماجم وعظام قتلاهم وشبح معركة المزرعة المخيفة حتى الصباح فواصل هزيمته حتى المسيرة ثم إلى حوران يجر أذيال الفشل. وقد ذكر الدكتور الشهبندر الذي كان في المنطقة أثناء تلك المعارك ما يلي:

لاحق المجاهدون الحملة بعد انسحابها من رساس وعلى رأسهم الأمير حسن الأطرش ويوسف بيك الأطرش وسعيد العاص وفؤاد سليم وحمد عامر وزيد الأطرش وحمزة درويش وصياح الحمود وفضل الله باشا هنيدي وكانت خسائر العدو عظيمة بينها طيارتان وقتلاه تملأ السهل أمام رساس، لكننا فقدنا رجالاً لا تعادله الرجال هو المرحوم حمد بيك عامر وجرح أيضاً فضل الله باشا هنيدي ولما ظهرت بوارق الثورة في سوريا رأى الجنرال غاملان شدة الخطر المحدق بالفرنسيين فاضطر إلى الانسحاب من الجبل نهائياً.

(١) نفس المرجع.

طلب الفرنسيون وزمروا وأقاموا الحفلات والمهرجانات من دمشق حتى بيروت حتى باريز ابتهاجاً بإنقاذ حاميتهم المحاصرة بقلعة السويداء واعتبروا هذا الموضوع نصراً كبيراً لاستعادة معنويات جيشهم وهيبة دولتهم. وأذاعت الصحافة الفرنسية والإعلام بعد دخول السويداء الأخبار التي تقول إن الانتفاضة الثورة قد انتهت وكتبت إحدى الصحف الفرنسية شبه الرسمية تقول: إن انتفاضة جبل الدروز لم تعد موجودة الآن^(١) وكتبت صحف أخرى تقول أن هذه الثورة ليست سوى انتفاضة محلية ذات طابع محلي وقد انهزم الدروز نهائياً هذا اليوم^(٢). لكن على أرض الواقع كل هذا الابتهاج والتطليل والتزوير كان سابقاً لأوانه، فلم يصمد المنتصرون بالسويداء أكثر من ٣٦ ساعة اضطروا بعدها لترك المدينة على عجل والعودة إلى مواقعهم السابقة. باءت العملية كلها بفشل ذريع، حيث كانت النتيجة الوحيدة للحملة تحرير الحامية الفرنسية التي ظلت محاصرة في قلعة السويداء قرابة الشهرين وقد تم تدمير المدينة أثناء انسحاب القوات^(٣)، بعد فشل العملية زعمت القيادة الفرنسية أن الهدف من الحملة كان تحرير الحامية الفرنسية المحاصرة. رغم أنها كانت قد أعلنت قبل بداية الحملة أنها سوف تخمد الثورة في عقر دارها بصورة نهائية^(٤).

وأخيراً اعترفت القيادة الفرنسية بأن سبب فرارها من السويداء كان عجزها من حيث المبدأ من مواجهة تكتيك الأرض المحروقة حيث كانت المياه والمواد الغذائية معدومة في السويداء والقرى التي حولها. حتى أن القوة التي أرسلت لجلب المياه من مصاد وهي مؤلفة من أربعين جندياً مغربياً فقد أسرها الثوار بمجموعها^(٥).

انتعشت نفوس الثوار في الجبل بعد هذا الانسحاب خاصة وقد وصل المجاهد رشيد طليع مع بعض الإعانات التي بدأت تصل من المهجر. وتجدد الاتفاق مع الدكتور الشهبندر لمهاجمة دمشق ثانية واستؤنفت الثورة في حماه وضواحيها. ولم

(١) Le Temps ٢٩/٩/١٩٢٥.

(٢) Neue Zürcher ٢٤/٩/١٩٢٥.

(٣) Lhmuanite ٣٠/١٠/١٩٢٥.

(٤) Lhumanite ٣٠/١٠/١٩٢٥.

(٥) أمين سعيد: الثورة العربية الجزء الثالث صفحة ٣٢٣.

يتمكن الجيش من الانسحاب بسهولة ، فقد صدمه الثوار في عدة مواقع مثل عرى
والمجير ورساس.

"يقول لوتسكي في كتابه ص ٢١٨ : إن الفرنسيين اضطروا للتراجع قرب
المجير بعد معركة عنيفة مع الثوار استمرت عدة ساعات تكبد فيها الفرنسيون
خسائر فادحة وقد استولى الثوار كما تفيد معلومات قيادتهم على بطارية مدفعية
ورشاشات كبيرة وصغيرة وكمية من الذخيرة وأسروا (٢١٠) جنود. وقد قاتل الدروز
في هذه المعركة جنبا إلى جنب مع أبناء حوران وهنا تغلب الحقد المشترك ضد
المستعمرين على العداء الذي كانت الطبقات المسيطرة توججه على مدى العصور.
وبعد أن فشل الفرنسيون في الاستيلاء على المجير اكتفوا باحتلال قرية عرى
فاستسلم الأمير حمد الأطرش وقد أحرقوا بيت زعيم مسيحيي الجبل عقلة القطامي
في خربا وقد اضطروا لتغيير خط انسحابهم فصاروا عن طريق المزرعة والمسيفرة ثانية
حتى حوران.

obeikandi.com

((بيت حمزة))

يقول الدكتور الشهبندر في مذكراته عن معركة المسيفرة ص (٤١-٤٢) ما يلي: لقد ظهرت البطولة العربية في الجبل في أضخم مظاهرها وأعظم شدتها. وحسبي أن أذكر القصة الآتية للدلالة على المفاداة الغالية والوطنية الصادقة والشجاعة الفائقة التي بدت في تلك الأيام.

بيت حمزة

في "رساس" أسرة تدعى "بيت حمزة" كان على أبنائها حماية العلم - العلم الذي يحمله الغزاة من أهل هذه القرية، فلما نفروا إلى حرب المسيفرة نفر معهم رب هذا البيت وهو شيخ مسن في نحو الثمانين من العمر ومعه أولاده الأربعة وقد اتخذ لنفسه إسقاء المجاهدين من قريتين حملهما على بغيره لهذه الغاية، وأما أولاده فالدفاع عن علم "رساس".

حدث أن الأول منهم حمل هذا العلم وتقدم به أمام أهل قريته حتى كاد يطلاً استحكامات الفرنسيين فسدّدوا عليه بنادقهم فقتلوه، فتقدم أخوه يعمل محله ولكن أصابه ما أصاب أخاه فخر بجانبه. ولما تقدم الرابع للقيام بالواجب حاول الرساسيون عبثاً أن يثبّوه عن عزمه رحمة بالعجوزين أمه وأبيه ولكنه أبى الالتفات إلى ضراعتهم وما زال يمشي حتى وصل إلى العلم وإلى إخوته القتلى بجانبه وما كاد يرفعه ليلوح به لأهل رساس حتى أصابه ما أصاب إخوته فخر صريعاً مثلهم.

أما الشيخ الذي كان يسقي المجاهدين فقد عاد في مساء اليوم التالي من المسيفرة محملاً على ظهر بغيره لأن شظايا قنبلة أصابته من الطيارة، وهو غير عالم بحديث أولاده فأنزلته زوجته وانحنت عليه تقبله طيلة ليلها وهي تدعو ربها أن يعجل برجوع أولادها ليخففوا عنه ألم الجراح، لكن دعاءها لم يستجب وآمالها لم تتحقق وقد انتظرتهم حتى الصباح فلم يعودوا فأخذ قلبها يخفق وأطرافها ترتعش لأن التغيب في مثل تلك الأيام نذير مبین.

شعرت الوالدة برعشة الفراق بعد أمل التلاقي فأخذت تنتظر في وجه الشيخ
الراحل وتقبله قبلات حارة وكأنها تحمله منها ما يستطيع حمله لفلذات كبدها
المضطجعين بجانب استحكامات المسيفرة وكانت في بعض الأحيان تنحني عليه
وتهمس بأذنه كلاماً لم يفهمه أحد من الموجودين بجانبها وأخيراً خارت قواها
فتمددت بجانبه صامتة من هول الموقف وشدة الألم.

جاءني أهلها إلى بيت متعب ببك الأطرش يستجدون بي لإسعافها فذهبت معهم
على الفور علي أنجدها فبلغت الدار بعد عشر دقائق فوجدت ذراعها الأيمن تحت
رأس الشيخ وكلاهما جثة هامدة لا حراك بها.

حقاً لقد مات رب بيت حمزة وريته وأولادهما الفتيان الأربعة ولكن روح حمزة
باقية في قلوب الأجيال العربية الآتية توحى إليها كيف يكون القيام بالواجب.